بلاغة تناسب الألفاظ والمعاني في الآيات السبع المثاني

أ.م.د. معن توفيق دحام　　　　م.د. عدنان عبد السلام الأسعد
قسم اللغة العربية
كلية التربية للبنات/ جامعة الموصل

تاريخ تسليم البحث: ٢٠١٣/١/٢٢ ؛ تاريخ قبول النشر: ٢٠١٣/٤/١١

ملخص البحث:

الحمد لله وكفى والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى .

وبعدُ، فنسأل الله العظيم التيسير والفتح في تحليل آيات أم الكتاب وبيان أوجه التناسب بينها، فضلاً عن سر الاعجاز في نظمها العجيب، فنقول بعد التوكل عليه والاستعانة به -ﷻ-، تبقى لغة التعبير القرآني سر الإعجاز البياني ومنه فن المناسبة فهو علم له أبعاده وأسراره في نظم الآيات القرآنية سواء مع المفردة أم التشكيل الدلالي أم التركيبي في التعبير القرآني ، ومنها سورة الفاتحة، حاول البحث إبراز هذه الظاهرة القرآنية على وفق التناسب السياقي والأسلوبي، تعضده الفنون البلاغية لاستجلاء أهم الإشارات والنكت السياقية وبيان الدروس والعبر تناسباً مع تشكيل الوحدة الموضوعية لكل آية والآيات بعضها مع بعض.

The Rhetoric of Words and Meanings symmetry of The Seven Oft Repeated Verses

Asst. Prof. Dr. Maan T. Dahaam　　　　Lect. Dr. Adnan A. Alasaad
Department of Arabic Language
College of Education for Girls / Mosul University

Abstract:

In the name of Allah, the Most Compassionate, the Most Merciful.

All Praise is due to Allah, and peace on His servants whom He has chosen. After that, we ask Almighty facilitation and conquest in the analysis of The Opening chapter, Al-Fatihah Surah, (the Essence of the Book) and in the showing of the symmetry among its verses as well as the mystery of miracles in their wonderful versification .Trusting in Allah and seeking help from Him, the Quranic language remains the rhetoric language where the art of occasion emerges. This art has its own dimensions and secrets in the Quranic versification at the semantic level of a word , phrase or structure in

the Quranic expression. The research tries to highlight this Quraninc phenomenon in The Opening chapter (Al-Fatihah Surah) in accordance with the contextual and stylistic symmetry that would support the rhetoric arts to elucidate the most important rhetorical signs and contextual jokes in addition to show lessons and significance correlated with the formation of the thematic unity of each verses or verses with each other.

التمهيد . (بين يدي العنوان):

قبل الولوج في بيان النكت السياقية والفنون البلاغية لابدّ من بيان مصطلحات في عنوان البحث تمثّلت في ثلاثة مطالب ، وعلى النحو الآتي:

المطلب الأول. المناسبة لغةً واصطلاحاً :

لغـةً: هي مصدر من الفعل ناسب يناسب ، و(ن س ب) كلمة واحدة قياسها اتصال الشيء بالشيء، ومنه النسيب وهو القريب المتصل كالأخوين وابن العم ونحوه(١)، وهو ايضاً الطريق المستقيم الواضح، سمي بذلك لاتصال بعضه ببعض، ومن معاني المناسبة: المماثلة والمشابهة(٢).

اما المناسبة **اصطلاحاً** فهي "علم يبحث في المعاني الرابطة بين الآيات بعضها ببعض، والسور بعضها ببعض، حتى تعرف علل ترتيب اجزاء القرآن الكريم"(٣)، فهي إذن العلم الذي يُعرف به وجه التناسب والارتباط بين السورة والسورة والآية والآية والكلمة مع الكلمة، وصولاً إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاها من الحال حتى تغدو كالكلمة الواحدة منسقة المعاني منتظمة المباني.

وتتنوع المناسبة في القرآن فمنها ما يكون في السورة الواحدة كمناسبة فاتحة السورة لخاتمتها ومناسبة الآية والآية ، ومناسبة الآية لفاصلتها ، ومنها ما يكون بين سورتين كالمناسبة بين اول السورة وخاتمة السورة التي قبلها ، ومناسبة مضمون السورة للسورة التي قبلها وكذلك المناسبة بين خاتمتي السورتين . وغيرها من أوجه التناسب في التعبير القرآني .

فوائد علم المناسبة: إن الوقوف على نظام الآيات يسمو بالدارس إلى ذروة الشوق والمحبة واللذة التي لا يصل إليها أبداً من لا يهتم بنظامها؛ فإن هذه المشاعر وتلك الأحاسيس تزداد بزيادة المعرفة بمحاسن الكلام وحسن النظام وقوة البرهان، إذ ان مثل هذه الدراسات تروي ظمأ طلاب المعرفة ، والباحثين عن دقائق أسرار هذا القرآن المجيد (٤)، وكذلك فإن طلب هذا العلم مما يعين

(١) معجم مقاييس اللغة ، أحمد ابن فارس : ٤٢٣/٥ .

(٢) لسان العرب ، ابن منظور : ٧٥٦/١ .

(٣) مصابيح الدرر في تناسب آيات القران، عادل محمد ابو العلاء :١٨/١ .

(٤) ينظر الأساس في التفسير، سعيد حوى : ٢٥/١ .

على حفظ القرآن، ويحقق أمر الله -ﷻ- بتدبره، وتحصيل الثواب[1]. ومن هنا كانت للمناسبة فوائد وثمرات كثيرة نذكر منها: فهم مراد الله -ﷻ- في كتابه وبيان إعجازه ، لأن معرفة المناسبة والنظام مفتاح لكثير من كنوز القرآن وحكمه يقول الرازي-/-(ت٦٠٦هـ): إن" أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط"[2]، والبقاعي-/- (ت٨٥٥هـ) يؤكد أن " المقصود بالترتيب معان جليلة الوصف، بديعة الرصف، عالية الأمر، عظيمة القدر"[3]. فضلا عن ذلك فإن المناسبة تعد وجهاً من وجوه الإعجاز القرآني، ودليل آخر على ربانية هذا الكتاب العظيم، لأن بها:" يرسخ الإيمان في القلب ويتمكن من اللب؛ وذلك أنه يكشف أن للإعجاز طريقين : أحدهما: نظم كل جملة على حيالها بحسب التركيب، والثاني : نظمها مع أختها بالنظر إلى الترتيب"[4].

المطلب الثاني بيان أسماء الفاتحة وأوجه التناسب فيها مع موضوعاتها:

تواردت لهذه السورة الكريمة أسماء عدَّة ذُكرت في القرآن الكريم والسنة النبوية ، وتنوع أسمائها وكثرتها يدل على شرفها وعظيم قدرها، لأن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى وكماله غالباً قال الفيروز آبادي (ت ٨١٧هـ): "اعلم أن كثرة الاسماء تدل على شرف المسمى، او كماله في امر من الامور، اما ترى ان كثرة اسماء الاسد دلت على كمال قوته ، وكثرة اسماء يوم القيامة دلت على كمال شدته وصعوبته، وكثرة اسماء الداهية دلت على شدّة نكايتها، وكذلك كثرة اسماء الله -ﷻ- دلّت على كمال جلال عظمته، وكثرة اسماء النبي -ﷺ- دلت على علو رتبته، وسمو درجته، وكذلك كثرة اسماء القرآن دلت على شرفه، وفضيلته"[5].ومن أبرز اسماء هذه السورة المباركة

١.**الفاتحة**: وسميت بذلك لأنها اول سورة مكتوبة في القرآن، وبها يفتتح المصحف الشريف ، وبهذا الاسم سماها النبي -ﷺ- في قوله : «**لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ**»[6] .

٢.**السبع المثاني**: جاءت هذه التسمية في قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ (الحجر:١٧)، وسميت بذلك لأنها تجمع بين الشيء ومايناسبه مثل(الله-الرب)و(الرحمن-الرحيم) و (العبادة-الاستعانة) وغيرها، أو لأنها تثنى بالقراءة في كل صلاة.

---

(١) علم المناسبات ، محمد عمر بازمول : ٤٠ .

(٢) التفسير الكبير ، الرازي : ١١٠/١٠.

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : ١/ ١٢ .

(٤) المصدر نفسه : ١١/١ .

(٥) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز : ٨٨/١ .

(٦) صحيح مسلم ، الإمام مسلم ، باب وجوب قراءة الفاتحة ، الحديث رقم (٣٩٤) : ١ / ٢٩٥ .

٣.أم القرآن: وسميت بذلك كونها مركز القرآن الكريم الشاملة لمعانيه الكلية ، والمباني الاساسية التي يتكلم عنها القرآن، وقد جاءت هذه التسمية في قوله –ﷺ– : «**أُمُّ القرآن هِيَ السَّبْعُ المَثَانِي وَالقرآن العَظِيمُ**» [١].

٤. الصلاة: سميت بذلك لكونها ذكراً ودعاءً وتبتلاً بأعظم مطلوب وهو الهداية ، وبهذا سماها ربنا –ﷻ– في الحديث القدسي، فعَنِ النَّبِيِّ –ﷺ– قَالَ: «**قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ:{الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}**»[٢].ومن أسمائها أيضاً الشافية ، والكافية ، وسورة الحمد ، وغيرها من الأسماء التي ذكرها علماء القرآن[٣] .

المطلب الثالث. فضائلها :

لا يخفى فضل هذه السورة وشرفها على احد من الدارسين ، وهذا الفضل والشرف جليٌّ من اسمائها التي ذكرناها آنفاً، فضلاً عن أمور اخرى وردت في الكتاب والسنة جاءت لتدلل على مكانة السورة وفضلها ، من ذلك ما جاء في الحديث القدسي عن النبي –ﷺ– أنه قال: قال الله تعالى «**قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ...** »[٤] .

ومن فضائلها أنها السورة التي أودع فيها علوم الكتب المنزلة كلها ، فعن الحسن البصري –رحمه الله– (ت١١٠هـ) انه قال : «**إِنَّ اللَّهَ أَوْدَعَ عُلُومَ الْكُتُبِ السَّابِقَةِ فِي القرآن ثُمَّ أَوْدَعَ عُلُومَ القرآن الْفَاتِحَةَ فَمَنْ عَلِمَ تَفْسِيرَهَا كَانَ كَمَنْ عَلِمَ تَفْسِيرَ جَمِيعِ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ**»[٥].ومن فضلها انها خصت بأمة الاسلام ، فعن ابن عباس–رضي الله عنهما– قال: «**بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ –ﷺ–، سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ، فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَسَلَّمَ، وَقَالَ: أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيتَهُ**»[٦]. وقريب منه قول رسول الله–ﷺ– : «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أُنْزِلَتْ فِي التَّوْرَاةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الزَّبُورِ وَلَا فِي الفُرْقَانِ مِثْلُهَا، وَإِنَّهَا سَبْعٌ مِنَ المَثَانِي وَالقرآن الْعَظِيمُ الَّذِي أُعْطِيتُهُ**» [٧].

---

(١) صحيح البخاري، الإمام البخاري، باب قوله:(ولقد آتيناك سبعا من المثاني)، الحديث رقم (٤٧٠٤): ٦/٨١.

(٢) صحيح مسلم ، باب وجوب قراءة الفاتحة ، الحديث رقم (٣٩٥) : ١/ ٢٩٦.

(٣) ينظر: التفسير الكبير: ١ / ١٥٦ – ١٥٨ .

(٤) سبق تخريجه في الصفحة السابقة .

(٥) الإتقان في علوم القرآن ، جلال الدين السيوطي : ٤ / ١٣٩ .

(٦) صحيح مسلم ، باب فضل الفاتحة ، الحديث رقم (٨٠٦) : ١ / ٥٥٤ .

(٧) سنن الترمذي ، باب ما جاء في فضل الفاتحة ، الحديث رقم (٢٨٧٥) : ٥ / ١٥٥ .

ومن شرفها انها اعظم سورة في القرآن الكريم، فعن ابي سعيد بن المعلّى-رضي الله عنه- قال: قال لي النبي-> -: «أَلاَ أُعَلِّمُكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي القرآن قَبْلَ أَنْ أَخْرُجَ مِنَ المَسْجِدِ» فَذَهَبَ النَّبِيُّ-صلى الله عليه وسلم- لِيَخْرُجَ مِنَ المَسْجِدِ فَذَكَّرْتُهُ، فَقَالَ: «الحَمْدُ للَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ. هِيَ السَّبْعُ المَثَانِي، وَالقرآن العَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ»[1] . ونختم فضائلها الجمة أنها رقية وشفاء من الامراض وهذا ما جاء في حديث طويل عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- أنه قال فيه : « ...مَا رَقَيْتُ إِلَّا بِأُمِّ الكِتَابِ...»[2] .

المبحث الأول . التناسب والانسجام في براعة المطلع (الحمد لله رب العالمين) :

يمكن ان نجد النسق في التعبير القرآني في هذا المقطع بين مفرداته أولاً، وانسجامها في التركيب، ثم مناسبتها في السياق، من هنا نقف عند جمالية التناسب في الالفاظ على وفق التقسيم الآتي:

المطلب الأول. التناسب الاسلوبي :

ومن التناسب الأسلوبي في قوله ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ﴾ إيثار الاسلوب الخبري دون الانشائي بصيغة الأمر على تقدير احمدوا الله ، وجمالية الاسلوب الخبري هذا يحقق نكتة اسلوبية في ايثار الجملة الاسمية لدلالتها على الثبوت والاستقرار وهذا المعنى مقصود في المطلع يعضده تعريف ﴿ٱلۡحَمۡدُ ﴾ للاستغراق وهو بهذا يفيد الاطلاق والعموم والكمال أي : كل الحمد لله ، فضلاً عن دلالته بانه سبحانه كان محموداً قبل حمد الحامدين ، وهذه المعاني لم تكن لو كانت الصيغة انشائية ، فالجملة الخبرية ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ﴾ جاءت لتشمل وتدل على "كل الحمد ما نستطيع تصوره ، وما لا نستطيع تصوره من صفات ذات الله -عز وجل- ، وصفات افعاله ، وعلى براءة الله من كل الصفات التي لا تليق بجلالته ، فلا يشاركه في كمال الحمد شيء في الوجود ، وهذا يتضمن الاعلان عن توحيد الله في ذاته، وفي صفاته واسمائه الحسنى"[3] . وبهذا المعنى شُحنت بالأسلوب الخبري ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ﴾ لبيان التعظيم والكمال لله -عز وجل- وحده ولهذا قدم لفظ ﴿ ٱلۡحَمۡدُ ﴾ على الاسم الكريم ﴿لِلَّهِ ﴾ ، واوثر التعبير بالاسم الكريم (الله) دون غيره مثل (ربي) لتحقيق تناسب في التركيب باعتبار اسلوب القصر المطلق المتحقق بقوله تعالى: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ﴾، فضلاً عن لام الاختصاص في الاسم الكريم ﴿لِلَّهِ ﴾.

المطلب الثاني. التناسب التركيبي:

يتحقق التناسب التركيبي في المطلع بين قوله تعالى: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ﴾ وقوله: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾، اذ نجد المناسبة بين استغراق الحمد لله -عز وجل- وحده ووجوب ذلك على العالمين لأنه

([1]) صحيح البخاري ، باب قوله (ولقد آتيناك سبعا من المثاني) ، الحديث رقم (٤٧٠٣) : ١ / ٨٦ .

([2]) المصدر نفسه ، باب فضل سورة الفاتحة ، الحديث رقم (٥٠٠٧) : ٦ / ١٨٧.

([3]) معارج التفكر ودقائق التدبر ، عبد الرحمن حبنكة الميداني : ١/٢٨٧-٢٨٨ .

خالقه وهو المنعم المتفضل وحده -ﷻ- ، وهذا تناسب لطيف في استجلاء المعنى الجامع بينهما، وجاء اسلوب الفصل بالجمع بين ذكر نعمة الخلق ونعمة هداية الخلق ومصالحهم، لان السياق يرشح لنا مفهوم التأمل والتفكر في خلق الله -ﷻ- والنظر في ملكوت السماوات والارض فلا يسع الانسان إلا أن يعترف بقدرة الله -ﷻ- وفضله ليقول :﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ وهو مرتبط مع لاحقة الآية الكريمة، وهذا من بديع التناسب المعنوي في التركيب، وقد أشار الالوسي (ت١٢٧٠هـ) الى هذه النكتة السياقية التركيبية بقوله : "وفي إجرائها عليه تعالى تعليل لإثبات ما سبق وتمهيد لما لحق وفيه إيماء إلى أن الحمد ليس مجرد الحمد لله بل مع العلم بصفات الكمال ونعوت الجلال وهذه أمهاتها ولم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها وقد يقال في إجراء هذه الأوصاف بعد ذكر اسم الذات الجامع لصفات الكمال إشارة إلى أن الذي يحمده الناس ويعظمونه إنما يكون حمده وتعظيمه لأحد أمور أربعة: إما لكونه كاملا في ذاته وصفاته وإن لم يكن منه إحسان إليهم، وإما لكونه محسنا إليهم ومتفضلا عليهم، وإما لأنهم يرجون لطفه وإحسانه في الاستقبال، وإما لأنهم يخافون من كمال قدرته فهذه هي الجهات الموجبة للحمد والتعظيم فكأنه سبحانه يقول يا عبادي إن كنتم تحمدون وتعظمون للكمال الذاتي والصفاتي فاحمدوني فإني أنا الله وإن كان للإحسان والتربية والانعام فإني أنا رب العالمين وإن كان للرجاء والطمع في المستقبل فإني أنا الرحمن الرحيم وإن كان للخوف فإني أنا مالك يوم الدين "[1] .

ومن بديع نسيج المطلع أسلوب التدلي، وهذا من بديع الكلام ، اذ ذكر الالوهية ﴿لِلَّهِ﴾ ثم ذكر بعدها مقام الربوبية ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ للتدليل على استحقاقه -ﷻ- لكليهما ، لأنه خالق البشر والمنعم عليهم مما ينتج عنه استحقاقه للألوهية فالاسم الكريم ﴿لِلَّهِ﴾ "يتضمن غاية العبد ، ومصيره ومنتهاه ، وما خلق له ، وما فيه من صلاحه وكماله ، وهو عبادة الله والاسم الثاني ﴿رَبِّ﴾ يتضمن خلق العبد ومبتدأه ، وهو انه يربه ويتولاه ، مع ان الثاني يدخل في الاول دخول الربوبية في الالوهية"[2] ، فضلا عن أن هذا التدلي حقق انسجاماً وتناسقاً بين الالفاظ في الآية الكريمة، لان في وصفه تعالى بـ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ مناسبة للفظ ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ في الآية ، اذ فيه اشارة الى سبب الحمد الكامل المطلق له سبحانه لأنه الخالق والمالك والمربي .

ولمقام الربوبية هذا يمكن ان نلتمس ايثار التعبير القرآني بـ﴿رَبِّ﴾ دون غيره مثل (خالق) او(فاطر) لان فيه معاني الاسماء الاخرى مثل الخلق والايجاد والرعاية والاهتمام وغيرها، فضلا عن أن "النَّاسَ أَطْبَقُوا عَلَى أَنَّ الْحَوَادِثَ مُفْتَقِرَةٌ إِلَى الْمُوجِدِ وَالْمُحْدِثِ حَالَ حُدُوثِهَا، لَكِنَّهُمُ اخْتَلَفُوا فِي أَنَّهَا حَالَ بَقَائِهَا هَلْ تَبْقَى مُحْتَاجَةً إِلَى الْمُبْقِي أَمْ لَا؟ فَقَالَ قَوْمٌ: الشَّيْءُ حَالَ بَقَائِهِ يَسْتَغْنِي عَنِ السَّبَبِ،

(1) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : ٨٨/١ .

(2) مجموع الفتاوى ، ابن تيمية : ١٣/١٤.

وَالْمُرَبِّي هُوَ الْقَائِمُ بِإِبْقَاءِ الشَّيْءِ وَإِصْلَاحِ حَالِهِ حَالَ بَقَائِهِ، فَقَوْلُهُ: رَبِّ الْعَالَمِينَ تَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّ جَمِيعَ الْعَالَمِينَ مُفْتَقِرَةٌ إِلَيْهِ فِي حَالِ بَقَائِهَا"(١). ونكتة إضافة﴿رَبِّ ﴾ الى﴿ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ تدل على شمول ربوبيته لكل شيء في هذا الكون ، وتدل على انفراده بالخلق والتدبير والتكوين والتصوير.

ومن دقائق التعبير ايثار صيغة ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ جمع عالم والعالم ليس له مفرد من لفظه. ويراد به المخلوقات كلها سوى الله –ﷻ– من انس وجن وملائكة وحيوان ونبات وغيرها، وهذه تتضمن العقلاء وغير العقلاء ، والعالم يجمع على العوالم اذا أريد به عالم غير العقلاء ، اما عالم العقلاء فجمعه (العالمون) وقد يدل على جميع العوالم لكن بغلبة العقلاء عليهم ، وجاء اختيار هذه الصيغة لأنها تناسب سورة الفاتحة التي تخاطب المكلفين بطلب الهداية واظهار العبودية لله –ﷻ–، فضلا عن أن فيها اشارة الى سمو عالم العقلاء ، فهم المكلفون الممتحنون بطاعة الله ، وهم المشرفون بالعقل وبهذا التكليف ، فهي اشارة الى التكليف والتشريف معاً(٢)، وفيهم "دقة التكوين، وجمال التصوير ، وروعة الخلق ، من عقل يدبر ، ولسان وجوارح تتحرك ، فجمع الله –ﷻ– في عالم العقلاء كل العوامل الاخرى في احكام الصنع وبديع التكوين"(٣) . ومن التناسب تنوع معناها فقد يراد من ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ كل العوالم ، لان الجمع قرينة الاستغراق ، وفيه شمول واستغراق لربوبية الله لكل شيء ، لكي تتجه العوالم كلها الى رب واحد ، تقر له بالسيادة المطلقة ، وتنفض عن كاهلها زحمة الارباب المتفرقة ، ثم ليطمئن ضمير هذه العوالم الى رعاية الله الدائمة ، وربوبيته القائمة ، والى ان هذه الرعاية لا تنقطع ابداً ولا تفتر ولا تغيب(٤) .

المطلب الثالث. الفاصلة :

أولاً. التناسب بين البسملة وقوله تعالى :﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ .

لا يخفى على المتلقي التناسب البليغ بين البسملة و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ ، اذ لما افتتح سبحانه الفاتحة بالبسملة وهي بذاتها مشتملة على الحمد ناسب ذلك ان يردفها بالحمد الكلي المطلق الجامع لكل افراد خلقه–ﷻ– بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ ، هذا الحمد الكامل المطلق الذي هو اول الفاتحة وآخر الدعوات الخاتمة لأهل الجنة قال تعالى:﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (يونس: ١٠)(٥).

---

(١) التفسير الكبير : ١٦١/١.

(٢) ينظر: رياض القران ، د. سمير شريف استيتية :٣١/١ .

(٣) زهرة التفاسير ، محمد ابو زهرة : ٥٩/١ .

(٤) ينظر : في ظلال القران ، سيد قطب : ٢٣/١ .

(٥) ينظر : روح المعاني :٧٠/١ .

بلاغة تناسب:﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ﴾.

ومن جهة اخرى انه سبحانه لما جعل هذه السورة الكريمة اول القرآن الكريم نبه المتلقين الى اصول التزكية النفسية بما لقنهم ان يبتدئوا مناجاته -ﷻ- بما تضمنته سورة الفاتحة من قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ... ﴾، ولما لقن المؤمنون هذه المناجاة التي لا يهتدي الى الاحاطة بها في كلامه غيره -ﷻ- ، قدم الحمد عليها ليضعه المناجون كذلك في مناجاتهم جرياً على طريقة البلغاء عند مخاطبة العظماء ان يفتتحوا خطابهم اياهم وطلبهم منهم بالثناء والذكر الجميل ، من هنا كان افتتاح القرآن بالتحميد سنة هذا الكتاب المجيد لكل عبد منيب ، ولهذا شأن مهم في صناعة الكلام ، فان تقديم المقدمة بين يدي المقصود اعون للافهام وادعى لوعيها[1] . فضلاً عن ان افتتاح السورة بالحمد فيه دلالة على أنه لا بد لكل موضوع من مقدمة تناسبه ، وتمهد له ، ولو افتتحت السورة بغيره لغاب هذا المعنى المطلوب ، قال البقاعي-/-: و"سر الافتتاح من حيث تصديرها بالحمد جزئياً فكلياً ، أن كل امر ذي بال لا يبدأ فيه فهو أجذم"[2] .

مما سبق ذكره يمكن للقارئ ان يلتمس براعة المطلع وحسن الاستهلال بـ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ... ﴾ دون غيره مثل الشكر او المدح او غيرهما فضلاً عن تقاربها في المعنى ، لان الحمد انسب للسياق وابلغ من غيره لأن فيه معنى الثناء الحسن الجميل على صاحب النعمة والاحسان، فضلاً عن أن اختيار هذه الجملة ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ أدق و أكثر ملاءمة للمقام والسياق والدلالة كما مرّ بيانه.

المبحث الثاني. التناسب بين الاقتران الثنائي (الرحمن ـ الرحيم)

المطلب الأول . التناسق الصيغي (الرحمن) (الرحيم) :

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ اسمان كريمان لله -ﷻ- مشتقان كلاهما من الرحمة ، مع اختلاف الصيغ الصرفية لهما ، والرحمة : الرقة والتعطف وهي "تقتضي الاحسان الى المرحوم ، وقد تستعمل تارة في الرقة المجردة عن الإحسان ، وتارة في الاحسان المجرد عن الرقة ، واذا وصف الباري -ﷻ- بها فليس فليس يراد بها الا الاحسان المجرد دون الرقة ، وعليه روي ان الرحمة من الله -ﷻ- انعام وافضال، ومن الادميين رقة وتعطف"[3] ، وهذان الاسمان الكريمان اشتقا من الرحمة بقصد المبالغة، أي وصفه -ﷻ- بالرحمة الكاملة المطلقة التي لا نهاية ولا حدود لها ، فالرحمن صفة مأخوذة من الرحمة وهي مبنية على وزن (فعلان) للمبالغة في الرحمة ، وهو خاص بالله -ﷻ- لا يوصف به غيره ، فأشبه ان يكون علماً، اما الرحيم : فهو صفة مأخوذة من الرحمة أيضاً ،

---

(1) ينظر : التحرير والتنوير ، الطاهر بن عاشور : ١/١٥٢ – ١٥٣ .

(2) نظم الدرر: ١/٤٦ .

(3) المفردات في غريب القران ، الراغب الاصفهاني : ٣٤٧ .

وهي مبنية على وزن (فعيل) وهو من صيغ المبالغة ايضاً[١] . وجاء تعريف هذين الاسمين الكريمين (بأل) لتأكيد معنى الرحمة وكمالها في الله –ﷻ– .

وصيغة﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾ على وزن فعلان ، ابلغ واكثر دلالة على الرحمة من ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ على وزن فعيل كما يشير البلاغيون والمفسرون ، لأنه اكثر حروفاً من﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ففيه زيادة في المبنى و"لأن زيادة المبنى تدلّ على زيادة المعنى"[٢]، من هنا كانت صياغة﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾ فيها دلالات اسلوبية اعمق واغزر من﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ، لان صيغة (فعلان) صرفياً تمثل الحدوث والتجدد والامتلاء والاتصاف بالوصف الى حده الاقصى، يقال مثلاً: غضبان بمعنى: امتلأ غضباً ، ومثله عطشان ، وريان ، وجوعان ، اما صيغة (فعيل) فهي تدل على الثبوت، وبهذا كان الاسم الكريم﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾ ابلغ من ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ لأنه اكثر دلالة على الرحمة من الثاني، فالرحمن من شملت رحمته الخلائق كلها محسنها ومسيئها ، مؤمنها وكافرها ، فرحمته عامة بدلالة هذا الاسم الكريم ، اما﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ فهو اخص وادق ، لأنه يشمل رحمة المؤمن فقط ، فدلالة﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ على الرحمة خاصة بالمؤمنين كما دل عليه القرآن الكريم (وكان بالمؤمنين رحيماً) ولم يقل رحمن بهم وللمعنى السابق قدم ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾ على ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾[٣] ،وفي ذكر﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ بعد ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾ ايضاً ما يعرف بعلم البديع بالتدلي من الاعم الى الاخص وبهذا الاسلوب البديعي بتوالي الخاص بعد العام تأكيد لاتصافه سبحانه بالرحمة التي لانهاية لها وشمولها لمن يستحق ولمن لا يستحق، يضاف الى ذلك ان﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾ دال على الصفة الذاتية، و﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ دال على الصفة الفعلية كما اشار الى ذلك الامام ابن القيم–/–(ت٧٥١هـ) بقوله: "ان الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم، فكان الاول للوصف، والثاني للفعل ، فالأول دال على ان الرحمة صفته، والثاني على انه يرحم خلقه برحمته، واذا اردت فهم هذا فتأمل قوله : (وكان بالمؤمنين رحيما) ، (انه بهم رؤوف رحيم) ولم يجيء قط، رحمن بهم، فعلم ان (رحمن) هو الموصوف بالرحمة ، و(رحيم) هو الراحم برحمته، وهذه نكتة لا تكاد تجدها في كتاب وان تنفست عندها مرآة قلبك لم ينجل لك صورتها"[٤].

مما سبق تتبين مناسبة الاقتران الثنائي بين﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾ و﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ في تشكيل بلاغي يومئ الى المبالغة والتأكيد مع التكميل المعنوي والاحتراس فقد جاء سبحانه بصفتين تدلان على التجدد والثبوت معاً ، ولو قال:﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾ فقط لتوهم السامع ان هذه الصفة طارئة قد تزول كما يزول العطش من العطشان اذا شرب، ولو قال:﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ فقط لفهم منها أن صفة رحيم مع أنّها ثابتة لكنها

---

(١) ينظر: معارج التفكر: ١/٢٩٣–٢٩٤ .

(٢) الجواهر الحسان في تفسير القران ، عبد الرحمن الثعالبي : ١ / ١٠٦ .

(٣) ينظر : لمسات بيانية في نصوص من التنزيل ، فاضل السامرائي :٣١ –٣٢.

(٤) بدائع الفوائد : ٢٤/١ .

ليست ظاهرة بالضرورة على الدوام انما قد تنفك ، مثلاً عندما يقال فلان كريم فهذا لا يعني انـــه لا ينفك عن الكرم لحظة واحدة انما الصفة الغالبة عليه هي الكرم ، ولأجل الاحتراس من هذه المآخـذ جاء تعالى بالصفتين مجتمعتين ليدل على ان صفاته الثابتة والمتجددة هي الرحمة، ويدل علـــى ان رحمته لا تنقطع ، وهذا يأتي من باب الاحتياط للمعنى، فهاتان الصفتان الثابتة والمتجددة لا تنفــك احداهما عن الاخرى، وهي مستمرة ثابتة لا تنفك البتــة وغيــر منقطعــة[1]. ولــو انـــه اكتفــى بــ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ فقط كذلك لما استقرت رحمته تعالى على احد نزلت به الرحمة لما في صيغة فعـــلان من دلالة التجدد والتغير والحدوث كما مرّ بيانه ،ولذلك بما يفيد الثبــوت والاســتقرار﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ ، والتغير والتجدد في صفة ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ له ما يسوغه ، والثبوت في صفة ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ له مـــا يســوغه كذلك ، فقد تزول الرحمة عمن نزلت به ، ولو كان الامر كذلك لما زالت رحمة عن مخلوق نزلت به ، فضلاً عن ان في اقتران صفتي﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ إشارة الى اقتران تغير الرحمة وثبوتها، فثبوت الرحمة مرتهن بوجود اسبابه ، وتغيرها مرتهن بأسبابه كذلك[2] .وبهذا يتبــين ســر ايثـــار التعبير بذكر هذين الاسمين الكريمين﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ دون غيرهما من الاسماء فضـــلاً عـــن ســـر ترتيبها البليغ . ويلاحظ انه -ﷻ- اعاد ذكر ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ مـــع ورودهمـــا نفســيهما بالبســملة وبالترتيب نفسه لتأكيد معنى الرحمة وبيان عظم قدرها .

المطلب الثاني. الفاصلة :

إنّ من دقائق التناسب وقوع هذين الاســمين الكــريمين بــين قولــه تعــالى : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقوله تعالى : ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ ومجيئهما في هذا الموضع ليفصل بهما بـــين الآيـــة السابقة واللاحقة انما له دلالاته واسراره ، فهذا الفصل ينبئ ان رحمته تعالى تظهر فـــي ربوبيتـــه للعالمين كلهم في الدنيا مؤمنهم وكافرهم ، وانه لما كان ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ فرحمته تخص المـــؤمنين الذين ينجون من العذاب ، فالرحمن متعلق بالدنيا ، والرحيم متعلق بالأخرة. وفيه دلالـــة علـــى ان رحمته تعالى ملازمة لربوبيته ، ويؤذن بان المربوبين ضعفاء محتاجون الى الرحمة فـــي حيـــاتهم كلها ، فربوبيته ربوبية رحمة واحسان، لا ربوبية قهر وجبروت ، وبهذا يستحق الحمد سبحانه لأنه ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال البقاعي-/- :"لما كانت مرتبة الربوبية لا تستجمع الصلاح الا بالرحمة ؛ اتبـــع ذلك بصفتي ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ترغيباً في لزوم حمده"[3] .

---

(1) ينظر : لمسات بيانية :٣٢.

(2) ينظر : رياض القران : ٢١/١ .

(3) نظم الدرر : ٢٨/١ .

وقد بين الرازي جانباً من اسرار التناسب في هذا الترتيب ، إذ ذكر أنه لما تقرر معنى الحمد في قوله ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ "ظَهَرَ أَنَّ الْمَوْجُودَ الَّذِي يَقْدِرُ عَلَى خَلْقِ هَـذِهِ الْعَـوَالِمِ عَلَـى عَظَمَتِهَا وَيَقْدِرُ على خلق العرش والكرسي والسموات وَالْكَوَاكِبِ لَا بُدَّ وَأَنْ يَكُونَ قَادِرًا عَلَى إِهْلَاكِهَا، وَلَا بُدَّ وَأَنْ يَكُونَ غَنِيًّا عَنْهَا، فَهَذَا الْقَادِرُ الْقَاهِرُ الْغَنِيُّ يَكُونُ فِي غَايَةِ الْعَظَمَةِ وَالْجَلَالِ، وَحِينَئِذٍ يَقَـعُ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ أَنِّي مَعَ نِهَايَةِ ذِلَّتِي وَحَقَارَتِي كَيْفَ يُمْكِنُنِي أَنْ أَتَقَرَّبَ إِلَيْهِ، وَبِأَيِّ طَرِيقٍ أَتَوَسَّلُ إِلَيْـهِ، فَعِنْدَ هَذَا ذَكَرَ اللَّهُ مَا يَجْرِي مَجْرَى الْعِلَاجِ الْمُوَافِقِ لِهَذَا الْمَرَضِ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: أَيُّهَا الْعَبْدُ الضَّعِيفُ، أَنَا وَإِنْ كُنْتُ عَظِيمَ الْقُدْرَةِ وَالْهَيْبَةِ وَالْإِلَهِيَّةِ إِلَّا أَنِّي مَعَ ذَلِكَ عَظِيمُ الرَّحْمَةِ، فَأَنَا الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ وَأَنَا مَالِكُ يَوْمِ الدِّينِ، فَمَا دُمْتَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لَا أُخَلِّيكَ عَنْ أَقْسَامِ رَحْمَتِي وَأَنْوَاعِ نِعْمَتِي وَإِذَا مِـتَّ فَأَنَـا مَالِكُ يَوْمِ الدِّينِ، لَا أُضِيعُ عَمَلًا مِنْ أَعْمَالِكَ، فَإِنْ أَتَيْتَنِي بِالْخَيْرِ قَابَلْتُ الْخَيْرَ الْوَاحِدَ بِمَا لَا نِهَايَةَ لَهُ مِنَ الْخَيْرَاتِ، وَإِنْ أَتَيْتَنِي بِالْمَعْصِيَةِ قَابَلْتُهَا بِالصَّفْحِ وَالْإِحْسَانِ وَالْمَغْفِرَةِ "(١).

المبحث الثالث . التناسب بين ثنائية الملك والزمن

المطلب الأول . التناسب الدلالي في صيغة مالك:

إن التناسب الدلالي البلاغي يكمن في جمالية انتقاء الالفاظ، ومنها انتقاء صيغة اسم الفاعـل ﴿ مَٰلِكِ ﴾ دون غيرها من الصيغ او الالفاظ مثل (رب) او (إله) ، لان ﴿ مَٰلِكِ ﴾ مشحونة بالمعـاني التي تناسب جو سورة الفاتحة ، فضلاً عن ﴿ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ اذ فيها دلالة على انه تعالى المالك للحساب والجزاء في يوم الدين والمتصرف فيه تصرف المالك في ملكه . واصل لفظ ﴿ مَٰلِكِ ﴾ من (الملك) بكسر الميم بمعنى صاحب حق التصرف بالشيء ، فمالك الشيء صاحب التصرف به ، فمثلاً مالك الدار هو صاحب التصرف بكناها، وبيعها، وهبتها ، وتأجيرها ، وغير ذلك من التصرفات. من هذا المعنى جاء ايثار صيغة اسم الفاعل ﴿ مَٰلِكِ ﴾ دون غيرها ؛ لان الله -ﷻ- هو مالك كل شيء في يوم الدين ملكاً تاماً بالاستقلال الكامل ، لا يشاركه في التصرف بأي شيء أحدٌ ، ولا علـى سـبيل التمكين والتسخير منه -ﷻ- ، لأنَّ كل حي كان ذا ارادة في الحياة الدنيا ، وكان يملك بالتسـخير الرباني المخصص له ان يتصرف بما حوله بعض تصرفات يكون في يوم الدين عاجزاً تماماً عـن ان يتصرف بقدراته أي تصرف ، إذ يسلب الله -ﷻ- الاشياء المطاوعة الا لقُدرتـه ومشـيئته(٢). فضلا عن دلالة ﴿ مَٰلِكِ ﴾ على ملكية الله ليوم القيامة ، تقرر هذه الصيغة القضـاء والحكـم بـين الخلق ، مع قصر صفة الملكية والقضاء والحكم عليه -ﷻ- في ذلك اليوم(٣) .

---

(١) التفسير الكبير : ١/١٩٠-١٩١ .

(٢) ينظر : معارج التفكر : ١/٢٩٥ .

(٣) ينظر : رياض القران : ١/٣٧ .

المطلب الثاني . التناسب التركيبي بإضافة الملك الى الدين :

تبرز ظاهرة التناسب التركيبي في قوله تعالى: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ في سياق الاضافة وترشيح مفهوم الزمن بذكر لفظ ﴿ يَوۡمِ ﴾ ، وقد جعلها الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) من الاتساع في اللغة بقوله: " فان قلت ما هذه الإضافة قلت هي إضافة اسم الفاعل الى الظرف على طريق الاتساع مجرى مجرى المفعول به كقولهم يا سارق الليلة اهل الدار والمعنى على الظرفية ومعناه مالك الأمر كله في يوم الدين كقوله: ﴿ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ ﴾ (غافر: ١٦)"(١) ، فتخصيص اليوم بالإضافة لتفرده سبحانه بالملك المطلق ، بالإضافة الى ما في هذه الاضافة من دلالة التعظيم والتفخيم لهذا اليوم .

و﴿ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ هو يوم القيامة ، يوم الحساب والجزاء ، واوثر التعبير به دون يوم القيامة او الاخرة او غيرهما من اسماء القيامة "مراعاة للفاصلة ، وترجيحا للعموم فإن الدين بمعنى الجزاء يشمل جميع أحوال القيامة من ابتداء النشور إل السرمد الدائم بل يكاد يتناول النشأة الأولى بأسرها على أن يوم القيامة لا يفهم منه الجزاء مثل يوم الدين "(٢) ، فضلا عن ذلك ان في ذكره دون غيره " تَّنْبِيهاً عَلَى عِظَمِ هَذَا الْيَوْمِ بِمَا يَقَعُ فِيهِ مِنَ الْأُمُورِ الْعِظَامِ وَالْأَهْوَالِ الْجِسَامِ مِنْ قِيَامِهِمْ فِيهِ لِلَّهِ تَعَالَى وَالِاسْتِشْفَاعِ لِتَعْجِيلِ الْحِسَابِ وَالْفَصْلِ بَيْنَ الْمُحْسِنِ وَالْمُسِيءِ وَاسْتِقْرَارِهِمَا فِيمَا وَعَدَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى بِهِ، أَوْ عَلَى أَنَّهُ يَوْمٌ يُرْجَعُ فِيهِ إِلَى اللَّهِ جَمِيعُ مَا مَلَّكَهُ لِعِبَادِهِ وَخَوَّلَهُمْ فِيهِ وَيَزُولُ فِيهِ مِلْكُ كُلِّ مَالِكٍ "(٣)، وفيه ايضاً اشعارٌ بان معاملة العبد تكون بما يعادل اعماله المجزيّ عليها في الخير والشر ، وكما قيل : كما تدين تدان ، وذلك العدل الخاص من الله –ﷻ– لعباده . ولهذه المعاني أيضاً لم يذكر (الدنيا) فلم يقل : (مالك الدنيا ويوم الدين) بل اقتصر على يوم الدين مع ان ملكه يشمل الدنيا والاخرة ، لهوانها وزوالها والعبرة بالدين .

المطلب الثالث. الفاصلة :

يمكن ان نلتمس جمالية التناسب في التعبير القرآني في ايجاد الامتزاج المعنوي بين قوله: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ فهو ترتيب بليغ يضمن معنى البداية والنهاية من خلال ربط الجزاء والحساب بما ينجي العبد منه وهو الحمد لله وطاعته ، لأنه القوي المقتدر المالك لكل شيء ، قال الزمخشري : " وهذه الأوصاف التي أجريت على الله سبحانه من كونه رباً مالكاً للعالمين لا يخرج منهم شيء من ملكوته وربوبيته ، ومن كونه منعماً بالنعم كلها الظاهرة والباطنة والجلائل والدقائق ، و من كونه مالكاً للأمر كله في العاقبة يوم الثواب والعقاب

(١) الكشاف : ٢٨ .

(٢) روح المعاني : ١/٨٨ .

(٣) البحر المحيط ، ابو حيان الاندلسي : ١/٤٠ .

بعد الدلالة على اختصاص الحمد به وأنه به حقيق في قوله : الحمد لله دليل على أنّ من كانت هذه صفاته لم يكن أحد أحق منه بالحمد والثناء عليه بما هو أهله "[١] .

ومن جانب آخر نجد التناسب في الترتيب بعد قوله تعالى ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ فهو باعتبار ذكر المسبب للنجاة من هول يوم الدين بان المحاسب هو الرحمن الرحيم الذي سبقت منته على خلقه بالهداية والنعم وهو عنوان دوام العبد على مراقبة الله –عَزَّ وَجَلَّ– والخوف من سوء المصير والمنقلب يوم الدين ، ليكون العبد دوماً على طاعة ربه خائفاً عاملاً وهذا يكشف لنا سر تناسب ذكر العبادة والاستعانة بعدها ، وبهذا كان بذكر ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ بعد ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ترهيب بعد ترغيب ، ووعدٌ بعده وعيد ، فقوله تعالى : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ترغيب ووعد يبعث الامل والطمأنينة في قلوب العباد ليبدد القنوط واليأس من رحمة الله ، وقوله تعالى بعدها ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ ترهيب ووعيد يبعث المهابة والخوف في قلوب العباد ، ليكونوا على حذر من هذا اليوم العظيم واهواله ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ﴾ (الحجر: ٥٠)[٢] ، وثنائية الترغيب والترهيب هذه تبني التوازن في السلوك الانساني بينهما .

وفي ذكر ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ في هذا الموضع احتراس وتكميل للمعنى اذ "لما كان الرب المنعوت بالرحمة قد لا يكون مالكاً ، وكانت الربوبية لا تتم الا بالملك المفيد للعزة ، المقرون بالهيبة المثمرة للبطش والقهر ، المنتج لنفوذ الامر ، اتبع ذلك بقوله: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ ترهيباً في سطوات مجده"[٣]. وفيه ايضاً تخصيصٌ وترقيٌ فوصفه بأنه ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ وصف اعظم مما قبله ، لأنه ينبئ عن عموم التصرف في المخلوقات كلها وحده في يوم القيامة[٤] .

المبحث الرابع : التناسب بين ثنائية العبادة والاستعانة:

المطلب الأول. التناسب الدلالي للعبادة والاستعانة :

قبل بيان المعنى الاجمالي للعبادة والاستعانة وسر اقترانهما لابد من الاشارة الى أن هذه الآية ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ جاءت استئنافاً بيانياً بعد الحمد الكامل لله–عَزَّ وَجَلَّ– تجلّت في بلاغة الفصل، وهي تعد لبنة في بناء الامة الاسلامية ، اذ تتجلى فيها العقيدة الخالصة لله –عَزَّ وَجَلَّ– ، ومعنى الآية "نخصك يا الله بالعبادة ونخصك بطلب الاعانة ، فلا نعبد احداً سواك ، واياك ربنا نستعين

---

(١) الكشاف : ٢٨ .

(٢) ينظر: تفسير المراغي ، أحمد مصطفى المراغي : ٣٢/١ .

(٣) نظم الدرر : ٢٩/١ .

(٤) ينظر: التحرير والتنوير : ١٧٧/١ .

على طاعتك ومرضاتك ، فانك انت المستحق لكل اجلال وتعظيم ولا يملك القدرة على عوننا احد سواك"[١] ، وهذا مفاد أسلوب القصر والحصر بتقديم الضمير(إياك).

والعبادة او العبودية في اللغة تدور دلالتها على اقصى آيات الخضوع والذلة، يقال: هذا طريق معبد اذا كان مذللاً بكثرة الوطء، وبعير مُعبد، أي: مذلل بالركوب، ومن معنى الخضوع والذلة سمي العبد عبداً لذلته وخضوعه لسيده ومولاه[٢]، والعبادة بوصفها الخضوع لم تستعمل بلفظها الا في الخضوع لله-ﷻ-، لأنه صاحب الفضل ومولى اعظم النعم، فكان حقيقاً بأقصى غاية الخضوع[٣]. اما الاستعانة فهي طلب العون والنصرة، فالسين والتاء في ﴿نَسْتَعِينُ ﴾ للطلب.

والسؤال البلاغي في سياق التناسب هو ما جمالية ايثار التعبير بالاقتران الثنائي وتقديم العبادة على الاستعانة، وهو يعد من بديع الاقتران الثنائي المعنوي في القرآن ، والجواب عليه انه آثر التعبير بهما دون غيرهما من الالفاظ ، مثل الصلاة او الدعاء؛ لان "هاتين الكلمتين من اقوى اجزاء الدواء؛ لان فيهما من عموم التفويض، والتوكل، والالتجاء، والاستعانة، والافتقار، والطلب، والجمع بين اعلى الغايات، وهي عبادة الرب وحده، واشرف الوسائل وهي:الاستعانة به على عبادته ، ما ليس من غيرهما"[٤] ، فضلاً عن ان كلاً من العبادة والاستعانة تجمع اصولاً عدة ، فالعبادة تجمع اصلين هما غاية الحب بغاية الذل والخضوع ، فمن احب واحداً ولم يخضع له ، لم يكن عابداً له، ومن خضع له بلا محبة لم يكن عابداً له حتى يكون محباً خاضعاً ، والاستعانة أيضاً تجمع اصلين الثقة بالله والاعتماد عليه دون الأسباب، فان الشخص قد يثق بواحد من الناس ولا يعتمد عليه في اموره مع ثقته به لاستغنائه عنه، وقد يعتمد على آخر وهو لا يثق به وذلك لحاجته لذلك الاخر ولعدم وجود من يقوم مقامه ، فالثقة والاعتماد اذا اجتمعا كانا دليلين على التوكل وهذا هو حقيقة قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[٥]. من هذا الإيثار تبرز القيم الاسلوبية للألفاظ القرآنية فهي مشحونة بالمعاني المناسبة لسياقها ، وهي في موقعها كاللبنة في البناء المنتظم ، منسجمة فيه ومتآلفة في "اتساق حسن ، وتأليف بديع ، تجيء الحقيقة محدودة واضحة صحيحة في ثوب ادبي جميل يوحي بالعظمة والتأمل ، ويضمن لهذه الحقيقة خلودها على مرّ الزمن"[٦] .

---

(١) صفوة التفاسير ، محمد علي الصابوني : ١٩/١ .

(٢) ينظر : لسان العرب : ٣ / ٢٧٣ .(مادة عبد)

(٣) ينظر : الكشاف : ٢٨ .

(٤) زاد المعاد في هدي خير العباد ، ابن القيم الجوزية : ١٦٤/٤ .

(٥) ينظر : التفسير القيم ، ابن القيم الجوزية : ٦٩ .

(٦) المعاني الثانية في الاسلوب القرآني ، فتحي احمد عامر : ٦٥ .

أما عن سر اقترانهما في اية واحدة ، فانه يبرز في الجمع بين ما يتقرب به العبد الى الله، وبين ما يطلبه ويحتاجه منه سبحانه[1] . فضلاً عن ان في هذا الاقتران اشارة لطيفة ودلالة رفيعة بان الانسان لا يستطيع ان يقوم بعبادة الله -ﷻ- الا بإعانة الله -ﷻ- له وتوفيقه ، ولا ينهض بها الا بالتوكل عليه -ﷻ- ، ولا يستطيع ان يعمل شيئاً الا بعون الله وتوفيقه له ، واقرار بعجز الانسان عن القيام بالعبادات وعن حمل الامانة الثقيلة اذا لم يعنه الله -ﷻ- على ذلك ، فالاستعانة بالله -ﷻ- علاج لغرور الانسان وكبريائه ، وبيان لضعفه وهوانه[2] .

المطلب الثاني . التناسب الاسلوبي والتركيبي

إنَّ المتأمل في قوله تعالى:﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ يجد انه تتزاحم فيه الاساليب البلاغية لتوضيح المعنى المطلوب، فتركيب الآية الكريمة يخبئ في خصائصه واحواله دلالات عديدة نتجت عن تواشج الفنون البلاغية الواردة فيها المنسجمة والمتسقة في هذه الكلمات ذات الالفاظ القليلة، هذا التركيب الذي ارتقى من مستوى الاخبار العادي الى مستوى الاداء الجمالي البليغ.

واول هذه الاساليب البلاغية البارزة فن الالتفات ، اذ جاء التعبير عن العبادة والاستعانة بأسلوب جديد في توجيه الكلام عَدل به عن الاسلوب في الآيات السابقة ، اذ تحول الخطاب من الغائب في قوله تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ ﴾ الى الخطاب في قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، هذا العدول في التعبير قد اشار اليه ابن كثير -/- (ت٧٧٤هـ) بقوله : " وَتَحَوُّلُ الْكَلَامِ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْمُوَاجَهَةِ بِكَافِ الْخِطَابِ، وَهُوَ مُنَاسَبَةٌ ، لِأَنَّهُ لَمَّا أَثْنَى عَلَى اللَّهِ فَكَأَنَّهُ اقْتَرَبَ وَحَضَرَ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى؛ فَلِهَذَا قَالَ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ أَوَّلَ السُّورَةِ خَبَرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِالثَّنَاءِ عَلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ بِجَمِيلِ صِفَاتِهِ الْحُسْنَى، وَإِرْشَادٌ لِعِبَادِهِ بِأَنْ يُثْنُوا عَلَيْهِ بِذَلِكَ "[3] . ومثل هذه الالتفاتات في القرآن لها اثرها في المتلقي من خلال لفت انتباهه وتنشيط ذهنه ونشاطه نحو المعنى المراد. فضلاً عن هذا فان نكتة العدول السياقي له اسراره ومسوغاته ومنها انه "لما ذكر ان الحمد لله المتصف بالربوبية والرحمة والملك لليوم المذكور ، اقبل الحامد مخبراً باثر ذكره الحمد مستقراً له منه ومن غيره، انه وغيره يعبده ويخضع له"[4] ،فضلاً عن هذا فان فيه حكمة معنوية غير الاثر الفني الذي ذكرناه، تتمثل في التجاوب مع سياق الآيات ومع التطلع الروحي للمؤمن العابد الى ان يترقى في عبادته،

---

(1) ينظر : الكشاف : ٢٩ .

(2) ينظر : لمسات بيانية : ٣٩ .

(3) تفسير القران العظيم : ٤٩/١ .

(4) البحر المحيط : ٤٢/١ .

ويتعرف على مولاه ، ويتقرب اليه بالعبادة والاستعانة قال البيضاوي -/- (ت٧٩١هـ): " بنى أول الكلام على ما هو مبادي حال العارف من الذكر والفكر والتأمل في أسمائه والنظر في آلائه والاستدلال بصنائعه على عظيم شأنه وباهر سلطانه، ثم قفى بما هو منتهى أمره وهو أن يخوض لجة الوصول ويصير من أهل المشاهدة "[١] وهذا من بديع التناسب ، ومعنى كلام البيضاوي، ان يصل العابد الى مرتبة الاحسان فيصير كانه يشاهد ربه ، هذه المرتبة العليا التي جاء ذكرها في الحديث : «الإِحْسَانُ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» [٢].

ومما يميز تركيب الآية الكريمة ظاهرة التقديم والتأخير بنوعيها اللفظي والتركيبي، اما التركيبي فيتمثل في تقديم مفعولي الفعلين ﴿نَعۡبُدُ﴾ و ﴿نَسۡتَعِينُ﴾ عليهما لأغراض يستدعيها السياق والجو العام للسورة الكريمة ، واولها افادة التخصيص والقصر ، والمعنى : لا نعبد الا اياك ولا نستعين الا بك وهذا هو كمال الطاعة والدين . فضلاً عن تعاضد جمالية أسلوب القصر ويحقق غاية الادب والاحترام مع الله -ﷻ- ، فتقديم "المعبود والمستعان على الفعلين ، فيه ادبهم مع الله -ﷻ- بتقديم اسمه على فعلهم ، وفيه الاهتمام وشدة العناية به"[٣] . وفيه ايضاً تنبيه للعابد على ان المعبود هو الله فلا يتكاسل في التعظيم ، وتسهيل لعباداته اذا استثقلها ، فانه اذا علم حقاً معنى العبودية ومن يعبد خف عليه حمل تكليف العبودية ، وفيه ايضاً معنى التكميل فهو ابلغ في التوحيد وابعد عن احتمال الشرك ، لأنه لو قيل (نعبدك) بتقديم عبادة العابد على المعبود من غير ذكر العبادة لمن ، فيحتمل ان تكون هذه العبادة لأي شيء آخر[٤] . فضلاً عن المعاني السابقة لهذا التقديم اللفظي نجد ان سر التقديم حقق ايقاعاً داخلياً منتظماً اذ يراعي ويناسب الفاصلة في الآيات السابقة وهي النون ، وهذا كله يغيب لو جاء التعبير بالتأخير فيقول مثلاً(نعبدك ونستعينك).

اما التقديم اللفظي في الآية فيتمثل في تقديم العبادة على الاستعانة هذا التقديم الذي جاء ليعزز معنى التقديم التركيبي ويقرر معناه و يناسب المعنى العام للسورة الكريمة ، ونكتة تقديم العبادة جاء للاهتمام وبيان شدة العناية بها على سنن العرب في تقديم الاهم ، وتبرز اهميتها من وجوه عدة منها ان تقدمها على الاستعانة من "باب تقديم الغايات على الوسائل ، اذ العبادة غاية العباد التي خُلقوا لها، والاستعانة وسيلة اليها ... ؛ ولان العبادة المطلقة تتضمن الاستعانة من غير عكس ... ، ولان العبادة لا تكون الا من مخلص ، والاستعانة تكون من مخلص ومن غير مخلص"[٥] ، فضلاً عن ذلك ان العبادة تقرب لله -ﷻ- وهي اولى بالتقديم في المناجاة ، فهي لنفع العبد للتيسير عليه،

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ٢٩/١ .

(٢) صحيح البخاري ، باب سؤال جبريل النبي ، الحديث رقم (٥٠) : ١ / ١٩ .

(٣) تفسير سورة الفاتحة ، د. نور الدين عتر : ١١٩ .

(٤) ينظر : التفسير الكبير : ٢١١/١ .

(٥) مدارج السالكين ، ابن القيم الجوزية : ٩٧/١.

فناسب ان يقدم المناجي ما هو من عزمه ووضعه على مايساله مما يعين على ذلك ، وفيه ايضاً مراعاة للفواصل[١] . وازالة الكبر والعجب لأنه طلب الاستعانة بعدها في قوله (واياك نستعين). ومن المعنى السابق المستفاد من التقديم اشارة الى انه لا ينبغي ان يستعان الا بمن يستحق العبادة وهو الله–ﷻ–؛ لان غيره ليس بيده الامر، ويجب ان يطلب المعونة منه–ﷻ– وحده، فالانسان مهما اوتي من حصافة الراي، وحسن التدبير، لا يستغني عن العون الالهي[٢].

وجاء قوله تعالى ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ في سياق فن الوصل مع قوله : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ، ولم تجئ مفصولة بطريقة تعداد النعم في مقام التضرع ونحوه من مقامات التعداد والتكرار؛ إشارة الى خطور الفعلين كلاهما في ارادة المتكلم بهذا التخصيص أي : نخصك بالاستعانة ايضاً مع تخصيصك بالعبادة[٣] . ومن بلاغة النظم تكرار الضمير المنفصل ﴿إِيَّاكَ﴾ولم يكتف بالعطف التركيبي فيقول: (اياك نعبد ونستعين) لتأكيد معنى الحصر والاهتمام ، وللدلالة على انه "لو اقتصر على واحد ربما توهم متوهم انه لا يتقرب الى الله –ﷻ– الا بالجمع بينهما ، ولا يمكنه ان يفصل بينهما وهو إذا تفكر في عظمة الله –ﷻ– كان عبادة ، وان لم يستعن به"[٤] .

واوثر التعبير بصيغة الجمع في ﴿نَعْبُدُ﴾ و ﴿نَسْتَعِينُ﴾ دون الافراد (اعبد) و (استعين) للدلالة على فضل الجماعة في الاسلام وترغيب في وحدتهم وتماسكهم حتى في العبادات ، وهذا جلي في اهتمام الاسلام بالعبادات الجماعية كصلاة الجماعة والحج والعمرة والزكاة وغيرها ، قال الطاهر بن عاشور : " وَفِي الْعُدُولِ عَنْ ضَمِيرِ الْوَاحِدِ إِلَى الْإِتْيَانِ بِضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ الْمُشَارِكِ الدَّالَّةَ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْمَحَامِدَ صَادِرَةٌ مِنْ جَمَاعَاتٍ، فَفِيهِ إِغَاظَةٌ لِلْمُشْرِكِينَ إِذْ يَعْلَمُونَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ صَارُوا فِي عِزَّةٍ وَمَنَعَةٍ، وَلِأَنَّهُ أَبْلَغُ فِي الثَّنَاءِ مِنْ أَعْبُدَ وَأَسْتَعِينَ لِئَلَّا تَخْلُوَ الْمُنَاجَاةُ عَنْ ثَنَاءٍ أَيْضًا بِأَنَّ الْمَحْمُودَ الْمَعْبُودَ الْمُسْتَعَانَ قَدْ شَهِدَ لَهُ الْجَمَاعَاتُ وَعَرَفُوا فَضْلَهُ...، فَكَأَنَّ الْحَامِدَ لَمَّا انْتَقَلَ مِنَ الْحَمْدِ إِلَى الْمُنَاجَاةِ لَمْ يُغَادِرْ فُرْصَةً يَقْتَنِصُ مِنْهَا الثَّنَاءَ إِلَّا انتهزها"[٥] ، ومن جمالية انتقاء صيغة الجمع ايضاً مقصد التواضع وبيان الضعف لان المقام لما كان عظيماً لم يستقل به الواحد استقصاراً لنفسه واستصغاراً لها واعترافٌ بقصوره[٦] .

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير : ١٨٦/١.

(٢) ينظر : تفسير المراغي : ٣٤/١ .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير : ١٨٣/١ .

(٤) مجمع البيان في تفسير القرآن ، الطبرسي :٥٤/١.

(٥) التحرير والتنوير :١٨٦/١ .

(٦) ينظر : فتح القدير ، الشوكاني : ٢٧/١ .

ومن بلاغة الآية الايجاز بالحذف ، تمثل بحذف متعلق الفعل ﴿نَسْتَعِينُ﴾ ولم يذكره للإطلاق والعموم ليشمل كل مستعان فيه ، مثل الاستعانة في اداء العبادة ، والاستعانة في الجهاد، وعلى طلب الرزق ، والاستعانة في كل شيء ينفع الانسان في الدارين[1] .

المطلب الثالث. الفاصلة :

يتجلى النظم القرآني في سبك عباراته ونظم آياته وتناسبها بعد الآيات السابقة من طريقين التناسب الاول تناسب سياقي، والثاني تناسب ترتيبي بين السياق، اما الاول فالتناسب السياقي واضح باعتبار ما سبق من الآيات فقد " كان ما تقدم من الآيات الثلاث تقريرا للحقيقة في جانب الربوبية وعظمتها وعموم سلطانها وسعة رحمتها تقريرا لطرفي المبدأ والمعاد وان ربوبية الله قد شملتهما وانفردت بالرحمة والرحمانية فيهما...وقد جاءت هذه الآية تقريرا لجانب العبودية والاستعانة وبينت ان الذي يجدر بالعباد ان يتوجهوا اليه وحده بالخضوع والخشوع والاعتراف بالحاجة اليه هو ذلك الذي تجلت اوصافه ووضحت عظمته"[2]، أي ان العبد لما حمد ربه، ووصفه بعظيم الصفات، بلغت به الفكرة منتهاها ، فتخيل نفسه في حضرة الربوبية ، فخاطب ربه بالإقبال[3] .

اما الثاني ، أي التناسب الترتيبي بين سياق الآيات ، فيتمثل في انه ذكر لفظ الحمد ، ثم ذكر يوم الدين وهنا ذكر العبادة والاستعانة والتناسب بيّن باعتبار ان العبادة طاعة والطاعة تلتزم ذكر الخالق والتوكل عليه وهذا يدعو دوام الحمد والثناء على الله -ﷻ- ؛ لأنه المالك المتصرف وحده في ملكه ، قال البيضاوي -/- : "ثم إنه لما ذكر الحقيق بالحمد ووصف بصفات عظام تميز بها عن سائر الذوات وتعلق العلم بمعلوم معين خوطب بذلك أي يا من هذا شأنه نخصك بالعبادة والاستعانة ليكون أدل على الاختصاص وللترقي من البرهان إلى العيان والانتقال من الغيبة إلى الشهود فكأن المعلوم صار عيانا والمعقول مشاهدا والغيبة حضورا بنى أول الكلام على ما هو مبادي حال العارف من الذكر والفكر والتأمل في أسمائه والنظر في آلائه والاستدلال بصنائعه على عظيم شأنه وباهر سلطانه ثم قفى بما هو منتهى أمره وهو أن يخوض لجة الوصول ويصير من أهل المشاهدة فيراه عيانا ويناجيه شفاها"[4] .

ومن الاعجاز البلاغي في نظم الآية الكريمة أنها جاءت تناسباً لما سبقها وتمهيداً لما بعدها، فقوله : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ متعلق بربوبيته واسمه (الرب) ، وقوله : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ قسم الرب ، فكان

---

(1) ينظر : الكشاف : ٢٩ ، ولمسات بيانية : ٤٠ .
(2) تفسير القران الكريم ، محمد شلتوت : ٢٨-٢٩ .
(3) ينظر : التحرير والتنوير :١٧٩/١ .
(4) انوار التنزيل : ٢٨/١-٢٩ .

متعلقاً بالشرط الاول من السورة الذي هو ثناء على الله -ﷻ- ؛ كونه اولى به ، اما قوله : ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فقسم العبد ، فكان مناسباً بان يتعلق بالشطر الثاني من السورة وهو ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ .... ﴾ لأنه فيه طلب الاعانة على الهداية[١] .

المبحث الخامس : التناسب التقابلي بين المؤمنين والكافرين

المطلب الاول .التناسب الدلالي للألفاظ: (اهدنا ـ الصراط ـالمستقيم ـ المغضوب ـ الضالين) .

ان مجيء قوله تعالى :﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ .... ﴾بعد الثناء والتمجيد والعبادة والاستعانة يتعاضد مع جمالية التناسب التشكيلي في سياق الآيات لترشح بؤرة السورة الكريمة والهدف الاساس منها، والمعنى اهدنا يا رب الى الطريق الحق وهو الاسلام وثبتنا عليه قال القرطبي (ت٦٧١هـ) -/-:" جَعَلَ هَذَا الدُّعَاءَ الَّذِي فِي هَذِهِ السُّورَةِ أَفْضَلَ مِنَ الَّذِي يَدْعُو بِهِ الدَّاعِي لِأَنَّ هَذَا الْكَلَامَ قَدْ تَكَلَّمَ بِهِ رَبُّ الْعَالَمِينَ، فَأَنْتَ تَدْعُو بِدُعَاءٍ هُوَ كَلَامُهُ الَّذِي تكلم به "[٢] .

واول ما يستوقفنا في لغة التعبير القرآني التناسب الدلالي في الفعل ﴿ ٱهْدِنَا ﴾ ، اذ يحمل شحنات كبيرة تصب في مقصد السورة ، فالتعبير به دون غير لا شك ان له دلالاته الخاصة. وقد تمثل في بلاغة اسلوب الامر المجازي ﴿ ٱهْدِنَا ﴾ مع دلالته على الجمع دون الافراد ، ويراد منه الدعاء بالاستمرار والثبات على الهداية وفيه معنى "الضراعة التي هي غاية التذلل من شدة الدعاء، والدليل على ذلك ما سبقه من استئناس باسم الله، وثناء عليه، واستمطار لرحمته، وتسليم بمطلق ملكه وربوبيته، وتخصيصه بالعبادة والاستعانة، اذ هذا الذي سبق يجعل الدعاء ضراعة، لا مجرد دعاء، وانما كان الامر كذلك من اجل ان يكون اقرب الى القبول والاجابة"[٣] لأنه صادر من أدنى إلى أعلى ، واوثر التعبير بالفعل ﴿ ٱهْدِنَا ﴾ دون غيره مثل (ارشدنا) او (دلنا) او غيرهما لان له دلالة بلاغية تتمثل في ان الهداية الدلالة بتلطف ، ولذلك خصت بالدلالة لما فيه خير المدلول، لان التلطف يناسب من اريد به الخير[٤] .

ومن اوجه التناسب الدلالي في ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ .... ﴾ تعديته بنفسه وليس بحرف الجر للإطلاق، لان فعل الهداية اذا عُدي بحرف الجر (الى) تضمن معنى الايصال الى الغاية المطلوبة ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الشورى: ٥٢) ، اما اذا عُدي بـ (اللام) تضمن

---

(١) ينظر : التفسير القيم :٧٠ .

(٢) الجامع لأحكام القران : ١٤٧/١ .

(٣) رياض القران : ٥٥/١ .

(٤) ينظر: التحرير والتنوير : ١٨٧/١ .

معنى التعيين والتخصيص بالشيء المطلوب ومثاله قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ (الإسراء: ٩) ، واذا تعدى الفعل ﴿ ٱهْدِنَا ﴾ بنفسه تضمّن معنى وصول الغاية والتعيين وهو التعريف والبيان والالهام ، فالمسلم اذا قال : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ فهو يطلب من الله -عَزَّوَجَلَّ- ان يُعرفه اياه ، ويبينه له ، ويلهمه اياه ، ويقدر عليه فيجعل في قلبه علمه وارادته والقدرة عليه ، لذلك جُرّد الفعل ﴿ ٱهْدِنَا ﴾ من الحرف وتعدى بنفسه ليتضمن هذه المعاني كلها ، ولو جاء مُعّدى بحرف لتعين معناه وتخصص بحسب معنى الحرف(١) .

ومن التناسب صيغة الجمع بقوله ﴿ ٱهْدِنَا ﴾ ، دون قوله (اهدني) ، ليكون مطابقاً لما قبله وهو قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ الذي جاء بصيغة الجمع ، وكأن المسلم يطلب الهداية له ولغيره من اخوانه المسلمين ، وفي ذلك اشاعة لحب التعاون ، والروح الجماعية عند المسلمين، وهذا المعنى يعززه تأخير مفعول الفعل ﴿ ٱهْدِنَا ﴾ وهو الضمير (نا) وعدم تقديمه مثل الفعلين السابقين ، ولو قدم لأفاد اختصاص الهداية بالمتكلم فقط دون غيره وهذا المعنى غير مقصود، اذ المراد من التأخير نسألك الهداية لنا وللمسلمين جميعهم(٢) .

واذا انتقلنا الى التناسب البلاغي في لفظة ﴿ٱلصِّرَٰطَ ﴾ نجد ايثار اللفظ والاستعارة والتعريف ، فقد اوثر التعبير بـ ﴿ٱلصِّرَٰطَ ﴾ دون غيره مثل الطريق او السبيل او الهدى وغيرها ، وذلك لعدة اسباب منها ان الطريق لا يسمى صراطاً الا اذا جمع خمسة اوصاف وهي ان يكون طريقاً مستقيماً، سهلاً ، مسلوكاً ، واسعاً ، موصلاً الى المقصود ، فلا تسمي العرب الطريق المعوج والمسدود والصعب صراطاً(٣) . فضلاً عن ذلك ان كلمة " (صراط) على وزن (فِعال) من (صراط) وهو من الأوزان الدالة على الاشتمال كالرباط والشِّداد، فيشتمل على كل السالكين، ولا يضيق بهم فهو واسع رَحْبٌ بخلاف كلمة (طريق) فإنها (فعيل) بمعنى (مفعول) من (طرق) بمعنى مطروق، وهذا لا يدل في صيغته على الاشتمال، فقد يضيق بالسالكين ولا يستوعبهم. وكذلك كلمة (السبيل) فهي كأنها (فعيل) بمعنى (مفعول) من أسبلَتِ الطريقُ إذا كثرت سابِلَتُها كالحكيم بمعنى المُحكَم. والسابلة من الطريق المسلوكةُ يقال: سبيل سابلة، أي: مسلوكة "(٤) ، ومن دواعي ايثار الصراط ايضاً تذكير المسلمين بصراط الاخرة الممدود على جهنم الذي فيه النجاة الى الجنة وكذا الصراط المستقيم في الدنيا فيه النجاة ومن سار عليه طائعاً لربه في الدنيا عبر صراط الاخرة ونجا من

---

(١) ينظر : بدائع التفسير ، ابن القيم الجوزية : ٧٢/١ – ٧٣ .
(٢) ينظر : لمسات بيانية : ٥٢ .
(٣) ينظر : بدائع الفوائد : ١٦/٢ .
(٤) لمسات بيانية : ٥٤ .

العذاب ، وهذا من بديع التناسب ولهذه المعاني استعار ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ للإسلام ، وبين اللفظ المستعار ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾والفعل﴿ ٱهۡدِنَا ﴾ تناسب ضمني ، كما نجد ان النظم القرآني يرشدنا الى وجود تناسب اخر بين الصراط ووصفه بالمستقيم وهو اسم فاعل تمهيداً لذكر حقيقة نعمة التوحيد (الايمان) وهذا يتناسب مع ذكر العبادة ، ومن جهة اخرى يتبين فضل الله -ﷻ- بتفضيل المؤمنين الصادقين على الضالين المكذبين الكافرين بنعمة الاستقامة وهذا يتناسب مع ذكر الاستعانة ، وهو من التناسب المعنوي ، فوصف الدين الحق بالمستقيم للترغيب فيه ، اذ انه يحدث الاستقامة فيمن يتبعه ، الى جانب كونه طريقاً مستقيماً مختصراً للوصول في ذاته . والمعنى السابق يقرره الافراد دون الجمع ، فالصراط في الآية جاء مفرداً اشارة الى أن الطريق الموصل للجنة واحد ، في حين ان طرقاً كثيرة توصل الى الضلال والنار ويعزز هذا المعنى ايضاً تعريف ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ للدلالة على انه طريق محدد وموضح من جهة التركيب والدلالة ، وعلى هذا لا مجال للالتباس فيه او الضلال. ومما يعضد هذا المعنى ايضاً قول النبي -ﷺ- : "ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا... وَالصِّرَاطُ الْإِسْلَامُ..."[١] .

هذا الصراط الذي وصف بالمستقيم جاء بعده ما يوضحه على طريقة التفصيل بعد الاجمال وذلك في قوله تعالى:﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ وهذه الآية بدل من الصراط، جيء به للتأكيد والاشعار بان الصراط المستقيم تفسير صراط المسلمين ليكون ذلك شهادة لصراط المسلمين بالاستقامة قال الزمخشري: "فإن قلت: ما فائدة البدل؟ وهلا قيل اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم؟ قلت: فائدته التوكيد لما فيه من التثنية والتكرير، والإشعار بأنّ الطريق المستقيم بيانه وتفسيره: صراط المسلمين ليكون ذلك شهادة لصراط المسلمين بالاستقامة على أبلغ وجه وآكده، كما تقول: هل أدلك على أكرم الناس وأفضلهم؟ فلان فيكون ذلك أبلغ في وصفه بالكرم والفضل من قولك: هل أدلك على فلان الأكرم الأفضل، لأنك ثنيت ذكره مجملا أوّلا، ومفصلا ثانيا، وأوقعت فلانا تفسيراً وإيضاحا للأكرم الأفضل فجعلته علما في الكرم والفضل، فكأنك قلت: من أراد رجلا جامعا للخصلتين فعليه بفلان، فهو المشخص المعين لاجتماعهما فيه غير مدافع ولا منازع"[٢]، وفي هذا البدل تمهيد لبسط الاجابة في الدعاء، فان الكريم اذا قيل له: اعطني كما اعطيت فلاناً كان ذلك انشط لكرمه[٣] .

اما بيان قوله تعالى بعده ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ فهو ان " المغضوب عليهم: هم اليهود لقوله عز وجل: (مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ) . والضالون: هم النصارى لقوله تعالى: (قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ). فإن قلت: ما معنى غضب اللَّه؟ قلت: هو إرادة الانتقام من العصاة، وإنزال العقوبة

---

(١) مسند الإمام أحمد، أحمد بن حنبل، باب حديث النواس بن سمعان، الحديث رقم(١٧٦٣٣):٢٩/١٨١-١٨٢.

(٢) الكشاف : ٢٩ .

(٣) ينظر: التحرير والتنوير : ١/١٩٢ .

بهم"[١]. ويمكن ان يكون معنى ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ هم كل من غضب الله عليه من الامم السابقة وما بعدهم ، و ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ هم كل من ضل الصراط المستقيم، او"﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ العصاة، و﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾: الجاهلون بالله" [٢]. وسياتي بيان دلالة كل منهما بالتفصيل في المطلب الثاني .

المطلب الثاني: التناسب التقابلي بين المؤمنين والكافرين

من بديع نظم سورة الفاتحة اسلوب التقابل ، وقد ورد جرياً على سنن لغة القرآن الكريم في بيان حال ومآل كل من الفريقين في الدنيا والاخرة ، ولا يخفى على احد ان مثل هذا الاسلوب له اثر بالغ في المتلقي اذ به تتضح الصورة وينجلي ما كان خافياً منها ، فضلاً عن بيان كل فريق من الفريقين لان الضد بالضد يعرف.

جاءت المقابلة بين فريقين: فريق المؤمنين وعبّر عنهم بـ:﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾، وفريق الكافرين الذين عُبر عنهم بـ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ ، فالفريق الاول سالكٌ صراطاً يسير عليه وقد انعم الله عليه، اما الثاني فمنحرف ضال ليس لديه طريق يسير فيه بل يتيه يميناً وشمالاً قد حلَّ عليه غضب الله–ﷻ–، وهنا سنسلط الضوء على اوجه التناسب التركيبي والاسلوبي في هذه المقابلة. واول هذه الاوجه هي جمالية المناسبة في تنوع الانتقاء اللفظي اذعبر مع المؤمنين بالفعل ﴿أَنۡعَمۡتَ﴾، اما مع الكافرين فقد عبر بالاسم ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ﴾ و﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ ، وهذا الانتقاء مقصود في السورة الكريمة إذ فيه ايجاز بديع، ففي ايثاره الفعل الماضي المبني للمعلوم مع الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ دون الاسم (المنعم عليهم) دلالات واشارات عدة منها انه جاء بالفعل جرياً على سنن القرآن في اسناد افعال الاحسان والانعام والرحمة الى الله–ﷻ–، فضلا عن ان الانعام بالهداية يستوجب شكر المنعم بها، واصل الشكر ذكر النعم، والعمل بطاعته، وكان من شكره ابراز الضمير المتضمن لذكره–ﷻ– وهو(التاء) في﴿أَنۡعَمۡتَ﴾[٣]، فضلا عن ذلك ان في الصيغة الفعلية ﴿أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ تكريماً وتشريفاً وبياناً لعظم النعمة والاحسان ما ليس في قوله: (المنعم عليهم) لانه لو عبر بالاسم لم يبن المنعم الذي انعم عليهم ، والنعمة انما تقدر بقدر المنعِم فلذلك ذكر فاعل النعمة وهو الله –ﷻ–[٤] . وهذا ما يعززه مجيء الفعل الماضي صلة لاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ لإفادة الشمول، شمول كل المنعم عليهم قبل زمان المتكلم ، وبيان ان المقصود صراط الذين ثبتت عليهم نعمة الله –

(١) الكشاف :٢٩.
(٢) أنوار التنزيل : ١ / ٣١ .
(٣) ينظر : بدائع التفسير : ٧١/١.
(٤) ينظر : لمسات بيانية : ٦٠ .

ﷻ- وتحققت[1] ، وهذا المعنى يفوت لو عدل الى الفعل المضارع (تنعم) لم يشمل المنعم عليهم قبل زمان المتكلم ، لان الفعل المضارع اكثر ما يدل على الحال[2] . ومما يدل على عظم هذه النعمة اطلاق الانعام وعدم تقييده بنعمة معينة اذ لم يقل: انعمت عليهم بكذا او كذا، ليعم ويشمل كل النعم دون حصر وتقييد ، والنعمة تدل على الحالة الحسنة في صورها المتعددة ، ولهذا جاءت هنا شاملة لخيرات الدنيا والاخرة[3] . وفي تخصيص اهل الصراط المستقيم بكل هذا الخير من النعم دليل على ان نعمة الدين هي نعمة موجبة للفلاح والسعادة في الدارين .

اما اذا انتقلنا الى الصيغة المقابلة التي استخدمت مع الكافرين نجد انه استخدم الاسم ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ مع حذف الفاعل من كليهما ، دون قوله : غير الذين غضبت عليهم واضللت ، لمعانٍ بلاغية منها : التأدب مع الله -ﷻ- بعدم نسبة الغضب والضلال واسنادهما اليه – ﷻ- ، فضلاً عن انه عبر باسم المفعول ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ﴾ واسم الفاعل ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ ؛ لان " أهل الغضب من غضب الله عليهم وأصابهم غضبه فهم مغضوب عليهم وأما أهل الضلال فإنهم هم الذين ضلوا وآثروا الضلال واكتسبوه ولهذا استحقوا العقوبة عليه ولا يليق أن يقال ولا المضلين مبنيا للمفعول لما في رائحته من إقامة عذرهم وأنهم لم يكتسبوا الضلال من أنفسهم بل فعل فيهم"[4]. يضاف الى ذلك مجيئهما اسمين للدلالة على ثبوت هذه الصفات لهم ودوامها لان الاسم يدل على الثبوت والدوام بخلاف الفعل ، وجاء التعبير بصيغة البناء للمفعول -المجهول- ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ﴾ في مقابل البناء للفاعل -المعلوم- (أنعمت) وذلك " ليعم الغضب عليهم: غضب الله، وغضب الغاضبين لله ولا يتخصص بغاضبٍ معين، فهم مغضوبٌ عليهم من كل الجهات. بل إن هؤلاء سيغضب عليهم أخلصُ أصدقائهم وأقرب المقربين إليهم، يوم ينقطع حبلُ كل مودّةٍ في الآخرة غير حبل المودّة في الله، وتنقطع كل العلائق غير العلائق في الله، كما قال تعالى: {لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ} [الأنعام: ٩٤]. وقال: {ثُمَّ يَوْمَ القيامة يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً} [العنكبوت: ٢٥] . فيغضب بعضهم على بعض ويتبرأ بعضهم من بعض حتى يتبرأ الإنسان من جلده وجوارحه التي تشهد عليه، فهم مغضوبٌ عليهم من كل شيء، ومن كل أحد "[5]، فضلاً عن ان في حذف الفاعل منهم اشعاراً بإهانتهم وتحقيرهم وتصغير شانهم ما ليس في ذكر فاعل النعمة من اكرام المنعم عليهم ، والاشادة

---

(1) ينظر : روح المعاني :٩٧/١ .

(2) ينظر : لمسات بيانية :٥٩ .

(3) ينظر : ارشاد العقل السليم ، أبو السعود العمادي : ١٨/١ .

(4) بدائع الفوائد : ٣٣/٢.

(5) لمسات بيانية :٦١ .

بذكرهم ، ورفع قدرهم[1] . وخصت صفة الضلال في ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ دون غيرها من الصفات ، لان الضلال لفظ ضد الهدى وضد معنى الصراط المستقيم وهذا يرشح لنا جمالية التناسب الضدي في المقابلة .

ومن اوجه التناسب في هذه المقابلة ايضاً حذف كلمة (صراط) مع ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ وهذه الحذف يعمق معنى الاسمين الدالين على الغضب والضلال ، فضلاً عن بيان سبب ضلالهم، فهم ليسوا كالفريق الاول المنعم عليهم ، فهم ليس لديهم طريق واضح يسيرون فيه بل ضالون تائهون يتخبطون خبط عشواء ويتبعون اهواءهم وشهواتهم فدينهم باطل منحرف ، ومثل هذا لا يستحق ان يسمى طريقاً فضلاً عن ان يكون صراطاً ، وبهذا يكون في حذفه ذم لهم وتهكم بحالهم. ومن اوجه التناسب في المقابلة الافراد والتثنية ، فالمنعم عليهم فريق واحد وهو يناسب الصراط المستقيم الواحد ، اما الفريق الثاني فضال ومتفرق وهم ليسوا فريقاً واحداً بل اكثر، ومنهم المغضوب عليهم ومنهم الضالون ، وهذا يرشح لنا دلالة ان الطريق الموصل للحق واحد، اما الباطل فطرقه مختلفة متنوعة ، يتنوع بتنوعها الكافرون .

وآخر اوجه التناسب الاسلوبي في هذه المقابلة ظاهرة التقديم والتأخير من غير العامل ، فقد قدم ذكر المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وآخر ذكر ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ ، لشرف المنعم عليهم فهم اولى بالذكر اولاً من هاتين الطائفتين المنحرفتين الهالكتين ، فضلا عن ان تقديم ما انعم الله به على عباده من الاحسان والهداية والكرامة اولى من تقديم ما فعله اشرار العباد بأنفسهم من استحقاق الغضب عليهم (غير) هو المخالفة بوجه ما ، ولهذه الاسباب مجتمعة قدم ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ على المغضوب عليهم والضالين[2] . وأخيراً فان في تأخير ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ ...﴾ بعد ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ترهيب بعد ترغيب ؛ لأن"الْإِيمَانُ إِنَّمَا يَكْمُلُ بِالرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ، كَمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَوْ وُزِنَ خَوْفُ الْمُؤْمِنِ وَرَجَاؤُهُ لَاعْتَدَلَا، فَقَوْلُهُ: (صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) يُوجِبُ الرَّجَاءَ الْكَامِلَ، وَقَوْلُهُ: (غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ) يُوجِبُ الْخَوْفَ الْكَامِلَ، وَحِينَئِذٍ يَقْوَى الْإِيمَانُ بِرُكْنَيْهِ وَطَرَفَيْهِ، وَيَنْتَهِي إِلَى حَدِّ الْكَمَالِ"[3] .

ومن التقديم في هذه المقابلة ايضاً تقديم ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ على ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ ، وبين ابن القيم –رحمه الله– سبب التقديم من وجوه عدة منها ان اليهود متقدمون على النصارى بالزمان، ومنها ان اليهود كانوا جيران النبي –>– في المدينة ، اما النصارى فكانت ديارهم بعيدة ونائية عنه –>– ، يضاف الى ذلك ان اليهود اغلظ كفراً واشد اجراماً وعناداً من النصارى ، ولهذا كان

([1]) ينظر : بدائع التفسير : ١/٧٢ .

([2]) ينظر : دلالات التقديم والتأخير في القران الكريم ، د. منير المسيري : ١٦٦–١٦٧ .

([3]) التفسير الكبير : ١/٢٢٤ .

الغضب اخص بهم ، فالتحذير من سبيلهم واتباع طريقتهم ، والبعد عنها اولى بالتقديم، ومنها ان ذكر المغضوب يناسب ذكر ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ لتتم المقابلة ، والفاتحة كما مر ذكره هي السبع المثاني التي يذكر فيها الشيء ومقابله او ما يناسبه على طريقة ازدواج الالفاظ وتقابلها في السورة الكريمة[١] . وأخيراً فان في تأخير لفظ ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ تناسباً للفاصلة في السورة مما حقق ايقاعاً منظماً وتوازناً جمالياً في خواتيمها لم يكن لو تقدم على ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾[٢] .

ومن دقائق التعبير في المقابلة ايثار كلمة ﴿غَيۡرِ﴾ مع ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ دون غيرها مثل (لا) ، لان من ناحية اللغة والاعراب ان (لا) يعطف بها بعد الايجاب ، كما تقول : جاءني زيد لا عمرو ، واما ﴿غَيۡرِ﴾ فتكون تابعة لما قبلها وهي صفة ليس الا ، وفي اخراج الكلام هنا مخرج الصفة احسن من اخراجه مخرج العطف وابلغ ؛ لأنها باعتبارها صفة لما قبلها افاد وصف المؤمنين بصفتين : احدها : انهم منعم عليهم ، وثانيها : انهم غير مغضوب عليهم ، فأفادت ﴿غَيۡرِ﴾ هنا ما افادته (لا) في العطف ، مع زيادة الثناء على المؤمنين ومدحهم . فضلاً عن ان فيها تقريعاً وذماً لأهل الكتاب من اليهود والنصارى ، فهم زعموا انهم المنعم عليهم دون المسلمين ﴿...نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ ، ولكن بمجيء ﴿غَيۡرِ﴾ كأنه قيل لهم : المنعم عليهم غيركم لا انتم ، وقيل للمؤمنين : المغضوب عليهم غيركم لا انتم ، فالإتيان بلفظ ﴿غَيۡرِ﴾ في هذه المقابلة احسن وابلغ وادل على اثبات المغايرة المطلوبة من حرف العطف (لا)[٣] .

ومن دقائق التعبير ايضاً ايثار ذكر (لا) مع ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ دون الاكتفاء بحرف العطف (الواو) فلم يقل:(غير المغضوب عليهم والضالين)، وذلك لأنه لو حذفت(لا) يمكن ان يفهم ان المباينة هي فقط للذين جمعوا الغضب والضلالة معاً، اما من لم يجمعها فلا يدخل في الاستثناء[٤]، فكان في مجيئها تأكيد للمعنى المراد وهو التحذير من كل فريق على حدة وليس في الجمع بينهما فقط، وبهذا يكون في ذكرها احتراس بدفع توهم ان المراد التحذير من الجمع بينهما فقط .

المطلب الثالث : الفاصلة وحسن الختام .

يمكن أن نلتمس جمالية حسن الختام في هذه المقابلة عن طريقين: الاول، (الفاصلة) أي مناسبتها لما قبلها من الآيات ، والثاني، (حسن الختام) ومناسبتها لمطلع سورة الفاتحة .

---

(١) ينظر : بدائع التفسير : ١/٨٢-٨٣ ، ومن لطائف القران ، د.حيدر الصافح : ١٧-١٨ .

(٢) ينظر : البحر المحيط : ١/١٥٢ .

(٣) ينظر : بدائع الفوائد : ٢/٢٤ .

(٤) ينظر: بدائع التفسير : ١/٨٣.

أولاً . الفاصلة :

ان مجيء هذا الدعاء الذي ظهر فيه التقابل ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ...﴾ في ختام سورة الفاتحة بعد تلك المقدمات له دلالاته الواضحة المتمثلة في تعليم العباد كيفية الطلب من ربهم الكريم ، اذ لا بد لهذا الدعاء ان تسبقه مقدمة تمهد له ، وهذه المقدمة هي الحمد والثناء على الله –ﷻ– الذي ورد قبل الدعاء ، قال ابن القيم –رحمه الله– : " لمَّا كَانَ سُؤَالُ اللَّهِ الْهِدَايَةَ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ أَجَلَّ الْمَطَالِبِ، وَنَيْلُهُ أَشْرَفَ الْمَوَاهِبِ: عَلَّمَ اللَّهُ عِبَادَهُ كَيْفِيَّةَ سُؤَالِهِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْهِ حَمْدَهُ وَالثَّنَاءَ عَلَيْهِ، وَتَمْجِيدَهُ، ثُمَّ ذَكَرَ عُبُودِيَّتَهُمْ وَتَوْحِيدَهُمْ، فَهَاتَانِ وَسِيلَتَانِ إِلَى مَطْلُوبِهِمْ، تَوَسُّلٌ إِلَيْهِ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَتَوَسُّلٌ إِلَيْهِ بِعُبُودِيَّتِهِ، وَهَاتَانِ الْوَسِيلَتَانِ لَا يَكَادُ يُرَدُّ مَعَهُمَا الدُّعَاءُ "[1]. وبهذا ترتب بعد الحمد المطلق والثناء على الله والوفاء بعهد الربوبية والعبودية طلب الفائدة والثمرة منها وهو الدعاء في ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ...﴾ ، وهذا ترتيب شريف رفيع عالٍ يمتنع في العقول حصول ترتيب آخر اشرف منه[2]. ويوضح هذا الكلام الحديث القدسي : "**قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**"[3] ، فطلب الهداية هو نتيجة التوحيد ، فالعبد لما وحد الله واقر بربوبيته وعبوديته للكون كله، حق له ان يدعو لنفسه بالهداية وغيرها فيستجاب له لأنه النتيجة لتلك العبادة.

ثانياً . حسن الختام :

ان التناسب بين مطلع السورة الكريمة وخاتمتها واضح وجليٌ فالسورة تبدأ بالحمد المطلق في قوله تعالى : ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ ، وختمت بقوله تعالى:﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ ، والعالمون اما منعم عليهم ، او مغضوب عليهم وهم الذين عرفوا الحق ولم يتبعوه وحادوا عنه ، او ضالون وهم الذين لم يعلموا الحق ، ولا يخرج العالمون المكلفون منها ، فالعالِم بالحق العامل به هو المنعم عليه ، والعالِم به المتبع هواه هو المغضوب عليه ، والجاهل بالحق هو الضال، وبهذا ناسب المطلع الختام اوثق مناسبة واتمها في احسن صورة واروع بيان[4] .

ومن التناسب بين المطلع والخاتمة ان اول السورة مشتمل على الحمد المطلق لله –ﷻ– ، والثناء عليه ، وآخرها مشتمل على ذم المعرضين عن الايمان بالله –ﷻ– ، والاقرار بطاعته ، وهذا يدل على ان مطلع الخيرات وعنوان السعادات هو الاقبال على الله –ﷻ– ، ومطلع الآفات ، وراس المخالفات ، هو الاعراض عن الله –ﷻ– ، والبعد عن طاعته[5] .

(١) مدارج السالكين : ٤٧/١ .

(٢) ينظر : التفسير الكبير : ٢١٥/١ .

(٣) سبق تخريجه في الصفحة الثالثة من البحث .

(٤) ينظر : التفسير القيم : ٦٤–٦٦ ، والتناسب بين السور في المفتتح والخواتيم ، د. فاضل السامرائي : ١١ .

(٥) ينظر : تفسير القران العظيم ، ابن كثير : ٣٠/١ .

وبهذا التناسب مثلت سورة الفاتحة من اولها الى اخرها قضيتين اساسيتين همـــا : العظمـــة المطلقة لرب العالمين ، والضعف المطلق للعالمين ، وكان عدم فهم هـــاتين القضـــيتين هـــو ســـر الانحراف عن منهج الله -ﷻ- ، وهكذا تكون نهاية السورة موافقة لبدايتها ، ومناسبة لهـــا ، مـــن حيث انها نسيج واحد مرتبط آخره بأوله ، ومتصل لاحقه بسابقه ، فالحديث عن المغضوب علـــيهم والضالين يردنا الى سر الحمد في مطلع السورة ، ويعرفنا عن سبب حمدنا لله -ﷻ- ، والحـــديث عن الذين انعم الله عليهم يردنا الى الحمد ايضاً ، ويعرفنا كيفية حمده -ﷻ- ، والحديث عن الـــذين انعم عليهم ايضاً يشير الى أنه سيتحدث عن غيرهم ، وتصنيف الناس في هذه الفئات الثلاث يردنـــا الى البداية في كون الله -ﷻ- ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[1] .

الخاتمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على أشرف السادات ، وبعد فقد وصلنا إلى نهاية بحثنا عن بلاغة تناسب الألفاظ في سورة الفاتحة لنخرج ببعض النتائج التي منها:

١-حققت السورة القرآنية تناسباً باعتبار لفظها وتركيبها ، وتناسباً مع الوحدة الموضوعية لها وهـــذا من بديع النظم القرآني .

٢-تناسب براعة المطلع مع حسن ختام السورة في تشكيل صورة المعنى.

- برزت في السورة الكريمة ظاهرة الاقتران الثنائي
- وظاهرة تناسب الصيغ وتناسق الألفاظ السياقية .

٣-برز أسلوب الفصل والوصل مع تعاضد أسلوب التقديم والتأخير اللفظي والتركيبي .

٤-الفاصلة القرآنية كانت ظاهرة اسلوبية أبرزت التناسب بأوجه متنوعة منها:

- التناسب على مستوى الوحدة الموضوعية .
- والتناسب على مستوى الالفاظ والصيغ .
- والتناسب على مستوى التركيب الأسلوبي ، وهذا من أسرار الإعجاز البلاغي.

المصادر والمراجع:

- **الإتقان في علوم القرآن**، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر محمـــد الســـيوطي (ت٩١١هـــــ)، ت:محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط ١، ١٣٩٤هــ/ ١٩٧٤ م.
- **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم** ، أبو السعود بن محمد العمادي الحنفي (ت٩٨٢هــ)، دار إحياء التراث العربي ، بيروت، (د.ط) ، (د.ت) .

---

(1) ينظر : رياض القران : ١٨-١٩ .

▪ **الأساس في التفسير** ، سعيد حوى ، دار السلام، القاهرة – مصر، ط٢، ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م.

▪ **أنوار التنزيل وأسرار التأويل** المعروف بـ(تفسير البيضاوي) ، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت٧٩١هـ) ت: محمد عبد الرحمن المرعشلي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط١، ١٤١٨ هـ – ١٩٩٨هـ.

▪ **البحر المحيط** ، أثير الدين محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي الغرناطي الشهير بأبي حيان (ت ٧٥٤هـ)، ت: صدقي محمد جميل ، دار الفكر ، بيروت– لبنان ، ط١، ١٤٢٠هـ.

▪ **بدائع التفسير الجامع لما فسّره الإمام ابن القيم الجوزية**(ت٧٥١هـ)، جمع: يسرى السيد حسن، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع ، الرياض – المملكة العربية السعودية ، ط١، ١٤٢٧هـ .

▪ **بدائع الفوائد** ، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن القيم الجوزية (ت٧٥١ هـ) ، دار الكتاب العربي، بيروت– لبنان ، (د.ط) ، (د.ت).

▪ **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز** ، أبو إسحاق محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (ت٨١٧هـ) ، ت: محمد علي النجار ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة ، ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦ م ، (د.ط).

▪ **التحرير والتنوير** (**تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد**) ، محمد الطاهر بن عاشور (ت١٩٧٢هـ)، الدار التونسية للنشر ، تونس ، (د.ط) ، ١٩٨٤م.

▪ **تفسير سورة الفاتحة** ، د. نور الدين عتر ، دار الغوثاني ، دمشق ، ط١، ١٤٣٢ه–٢٠١١م.

▪ **تفسير القرآن العظيم** ، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (ت٧٧٤هـ)، ت: سامي بن محمد سلامة ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، الرياض – المملكة العربية السعودية، ط٢ ، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩ م .

▪ **تفسير القران الكريم** ، محمود شلتوت ، دار الشروق، بيروت، الطبعة العاشرة١٩٨٣م.

▪ **التفسير القيم** ، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن القيم الجوزية (ت٧٥١ هـ) ، تحقيق مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان ، دار ومكتبة الهلال – بيروت ، ط١، ١٤١٠ ه – ١٩٩٠م.

▪ **التفسير الكبير** ، فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي (ت٦٠٦هـ) ، دار دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان ، ط٣، ١٤٢٠هـ.

▪ **تفسير المراغي** ، أحمد مصطفى المراغي ، شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده ، مصر، ط١، ١٣٦٥هـ – ١٩٦٥م .

▪ **التناسب بين السور في المفتتح والخواتيم** ، د. فاضل صالح السامرائي، دار ابن الجوزي ، الدمام– السعودية ، ط١ ، ١٤٣٢ه .

▪ **الجامع لأحكام القرآن المسمى تفسير القرطبي**، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي (ت٦٧١ هـ)، ت: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ط٢، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م .

▪ **الجواهر الحسان في تفسير القرآن** ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (ت ٨٧٥هـ) ، ت: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان ، ط١، ١٤١٨ هـ .

▪ **دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم دراسة تحليلية** ، د.منير محمود المسيري ، تقديم: د.عبد العظيم المطعني ، ود.علي جمعة ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط١، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م .

▪ **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني** ، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي (ت١٢٧٠هـ)، ت: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان،ط١، ١٤١٥هـ.

▪ **رياض القرآن تفسير في النظم القرآني ونهجه النفسي والتربوي**، د. سمير شريف استيتية ، جدار الكتاب العربي - عالم الكتب الحديث ،عمان– الاردن، ط١، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م .

▪ **زاد المسير في علم التفسير** ، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي (ت٥٩٧هـ) ، المكتب الإسلامي ، دمشق – بيروت ، ط٣ ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤ م .

▪ **زاد المعاد في هدي خير العباد**، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن القيم الجوزية(ت٧٥١ هـ)، مؤسسة الرسالة، بيروت - مكتبة المنار الإسلامية، الكويت ، ط٢٦، ١٤١٥هـ -١٩٩٤م

▪ **زهرة التفاسير**، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (ت١٣٩٤هـ)، دار الفكر العربي، (د.ط) ، (د.ت).

▪ **سنن الترمذي** ، أبو عيسى الترمذي السلمي (ت٢٧٩هـ) ، ت: أحمد محمد شاكر وآخرون ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، (د.ط) ، (د.ت) .

▪ **صحيح البخاري** ، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري (ت٢٥٦هـ)، ت: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير ، ودار اليمامة ، بيروت ، ط٣ ، ١٤٠٧هـ -١٩٨٧م.

▪ **صحيح مسلم** ، مسلم بن الحجاج بن مسلم أبو الحسين القشيري النيسابوري (ت٢٦١هـ)، ت: محمد عبد الفؤاد عبد الباقي ، دار إحياء الكتب العربية ، بيروت ، (د.ط) ، (د.ت).

▪ **صفوة التفاسير**، محمد علي الصابوني ، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة، ط١، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.

▪ **علم المناسبات بين السور والآيات**، محمد بن عمر بازمول ، المكتبة المكية، مكة المكرمة، ط١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

▪ **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**،محمد بن علي الشوكاني (ت١٢٥٠هـ)، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت ، ط١، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م .

- **في ظلال القرآن** ، سيد قطب (ت١٣٨٧هـ) ، دار الشروق ، القاهرة ، ط١٧، ١٤١٢ هـ.
- **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل**،جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت٥٣٨هـ)،اعتنى به: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت ، ط١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
- **لسان العرب** ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي (ت٧١١هـ)، دار صادر، بيروت – لبنان ، ط٣، ١٤١٤هـ -١٩٩٤م.
- **لمسات بيانية في نصوص من التنزيل** ، أ.د.فاضل صالح السمرائي ، شركة العاتك لصناعة الكتب، القاهرة ، ط٢، ١٤٢٧هـ -٢٠٠٦م.
- **مجمع البيان في تفسير القرآن** ، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي ، دار ومكتبة الحياة، بيروت – لبنان، (د.ط) ، (د.ت).
- **مجموع الفتاوى** ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (ت ٧٢٨هـ)، ت: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية ، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م، (د.ط).
- **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين** ، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن القيم الجوزية (ت٧٥١ هـ)، ت: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي ، بيروت، ط٣، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م .
- **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني (ت٢٤١هـ) ، مؤسسة قرطبة – مصر ، (د.ط) ، (د.ت).
- **مصابيح الدرر في تناسب آيات القرآن الكريم والسور** ، عادل بن محمد أبو العلاء ، منشورات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، ١٤٢٥هـ (د.ط).
- **معارج التفكر ودقائق التدبر** ، عبد الرحمن حسن حبكة الميداني ، دار القلم ، دمشق ، الدار الشامية، بيروت ، ط١، ١٤٢١ هـ -٢٠٠٠م.
- **المعاني الثانية في الاسلوب القرآني**، د. فتحي احمد عامر، منشأة المعارف، الاسكندرية، ١٩٧٦م .
- **معجم مقاييس اللغة** ، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت ٣٩٥هـ)، ت: عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر ، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م (د.ط).
- **المفردات في غريب القرآن**، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت٥٠٢هـ)، ت: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، دمشق بيروت، ط١، ١٤١٢ هـ.
- **من لطائف القران** ، د.حيدر الصافح ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، ط١، ٢٠٠١م.
- **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي (ت٨٨٥هـ)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة – مصر ، (د.ط) ، (د.ت) .

This document was created with Win2PDF available at http://www.daneprairie.com.
The unregistered version of Win2PDF is for evaluation or non-commercial use only.